

سعود السنعوسي

حَقَامُ الدَّارِ

أحجية ابن أزرَق



رواية



Meshaal Pansol 2016

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



حَمَامُ الدَّارِ

أُحْيِيَةُ ابْنِ أَزْرَقِ

حَمَامُ الدَّارِ

أُحْجِيَّةُ ابْنِ أَزْدَقَ

رواية

سعود السنعوسي

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. ١٤٤١

الطبعة الأولى: تشرين الثاني/نوفمبر 2017 م - 1439 هـ
الطبعة الثانية: تشرين الثاني/نوفمبر 2017 م - 1439 هـ

ردمك 9-2377-01-614-978

جميع الحقوق محفوظة

 facebook.com/ASPArabic

 twitter.com/ASPArabic

 www.aspbbooks.com

 asparabic

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. س.م.ل



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

منشورات ديفاف

DIFA PUBLISHING

هاتف الرياض: +966509337722

هاتف بيروت: +9613223227

البريد الإلكتروني: edition.difa@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

لوحة الغلاف والرسوم الداخلية للفنانة: مشاعل الفيصل

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

العَهْدُ الْقَدِيمُ

صباحاتِ عِرْزالِ بْنِ أَزْرَقِ

كَلِمَة

.. تعدّى الخمسين من عُمره، عاشَ منها عشرين عاماً

خالية من أيِّ أحداث، حتى فاجأته ذاتَ يومٍ حمامة!

باتريك زوسكيند

قَبْلَ سَاعَةٍ تَأْمُلُ

«إلى هنا يكفي هذا الهراء!»

يكفي هذا العبث والإصرار على كتابة ما لن يُكتب. لا شيء يُجبرني على مواصلة الكتابة. لا شيء. على الكاتب أن يتواضع أمام عجزه أحياناً، وأن يكفَّ عن المحاولة.

أنا في غرفة المكتب مُنذ الصُّباح، أشكو لزوجتي التي أشتاق ضيقَ صدري وحيرتي في أمري. أَسِنْدُ جِبيني إلى كَفِّي اليُسرى والوخزُ في كَفِّي اليُمْنى لا يزال. عيناى على أوراقٍ بين مِرْفَقَيّ، فوق سطح مكتبي، تحمِلُ مخطوطَ نصٍّ احترتُ في أمره. تمسحُ زوجتي على كتفي. تهبطُ كَفُّها، مروراً بذراعي، وصولاً إلى كَفِّي اليُمْنى تمسحُ على الضمادة الطبية برفق.

«ما زلتَ تشعرُ بالآلامِ الحرق؟».

أُطلِقُ زفرةً حرّى والحرق في قلبي. أُلصِقُ رَأْسَ سَبَّابتي برأسِ إبهامي بحذر. أَقْرُبُهُما إلى وجهي أنظرُ فيهما. أَجِيبُهَا مُهَوَّنًا:

«ما دمتُ قادِرًا على الإمساكِ بفرشاةٍ أو قلم...».

أهزُّ رَأْسِي مُردِّفًا:

«..أنا بخير».

تَلَوِّحُ لي بعلبةٍ مرهم الحروق. أنفضُ رَأْسِي:

«لا حاجة لي به منيرة!».

تبتسم. تترك الغلبة على طرف المكتب. تُسندُ كَفَّها على صلعتي.
تمسحُ برفق. تذكّرني بثلاث عشرة رواية، وأكثر من ثمانين قِصَّة،
وأربع مسرحياتٍ وفيلمين سينمائيين وعشرات اللوحات التشكيلية،
أعمال أصابت من النجاحِ قدرًا وإفرا طيلة مشواري الأدبي والفني
الذي جاوزَ الثلاثين عامًا. عيناَي على النَّص لا تزالان. تهبطُ زوجتي
بكفَّيها إلى كِفَيّ تعصُرُهما في حين تضغطُ بإبهاميها عضلات رقبتي:
«يبدو أنك نسيت شيئًا ما!».

أدرتُ رأسي جانبًا أنظرُ إليها مُستفهمًا. ابتسمت. انحنُت تِلْهِمُ
وجتني. نفخَ طيِّبها الذي أحب وأفتقد:

«إنه يومٌ استثنائي.. حضّر نفسك لاحتفل هذا المساء».
أطلقتُ تنهيدةً ولم أحر جوابًا. قرصت موضعَ قِبَلتها في وجتني
قبل أن تنصرف:

«حبيبي! هي ليست المرّة الأولى! دُرْجك السُّفْلِي يَغْصُ
بمخطوطاتٍ مؤجلة وفي المرسوم عشرات اللوحات قيد الإنجاز!».
هي لا تفهم. هذا النَّصُّ شأنٌ آخر. ليس لما تركته فيه، بل لما
تركه فيّ. أردتُ أن أشرحَ لها، لكنني مثلها لا أفهم. انصرفتُ عن كُلِّ
شيءٍ مساءً أمس، وفي الفجر وضعتُ ورقةً بيضاء صقيلةً كغلافٍ فوق
الصفحة الأولى من المخطوط النَّاقص، ورقة من أوراقٍ فاخرة مطبوعٍ
في زاويتها السُّفْلَى يسارًا كلمة «مشروع رواية»، دَيِّتُ استخدامها
كتعويذة وفألٍ حَسَنٍ مع بداية كُلِّ عملٍ أشرعُ في كتابته. أمسكتُ
بالقلمِ أخطُ عنوانًا مؤقتًا في الأسفل: نصُّ لقيط!
لا أدري ما الذي صرفني عن كُلِّ مشاريعي الكتابية المؤجلة.

وجدتني مُنصرفاً إلى شخصيةٍ جاءت من لا أدري، أجبرتني على كتابة شيءٍ منها على سبيلِ العودةِ إليها لاحقاً. شخصيةٌ لا أفهمها أخذتني صوبها وأبعدتني عن كُلِّ شيءٍ. فتحتُ ورقةَ بيضاء جديدة لأدوّن أفكارِي حول هذا الذي تسَلَّلَ إلى رأسي فجأة. وجدتني ألهُثُ في الكتابة؛ شخصٌ مضطربٌ اسمه عِرزال بن أزرق! حتى الاسم غير مألوفٍ لا أدري من أين جاء. أنا لا أملك تصوراً حول ما كتبت. لا الزمن معروفٌ بالنسبة لي ولا المكان ولا الشخصُوص التي تُحيط بالبطل. بطل؟! الكلمة ذاتها تمنحُ صاحبها قيمةً أشكُّ في وجودها! أَلْفَيْتُني أكتب وحسب. أكتبُ عمّا لا أعرف. أكتبُ بكفٍّ مُلتهبة. أنا لا أزعمُ ما يزعمه بعضُ الكُتّاب حول ما يشبه الماورائيات التي يتحدثون عنها، كأن يردُّون أصلَ كتاباتهم إلى وَحْيٍ أو إلهام، متوسلين مزاعمهم أن تمنحُ نصوصهم الفارغة هالةً زائفة تُبهرُ قارئاً مُحتملاً، لكنني كنتُ أكتبُ وحسب. أكتبُ وفقاً لدافعٍ أجهله. أكتبُ لأدركُ مشهد انتحار تلك الشخصية، وحينما اقتربتُ منه لم أقوَ على قتلها! شرعتُ في الكتابة قبل غروب يومٍ أمس. خرجتُ بنصٍّ غير مكتملٍ كُتِبَ دفقةً واحدة. نسيْتُ تماماً التهَابَ كَفِّي. لم أكن لأنتبه إلى غيابِ انتابني أثناء الكتابة لولا ارتفاع الأذان من المسجدِ القريب من بيتي. التفّتُ إلى النافذةِ وإذ بالظلام يلوّنُ ما وراءها. كم لَبِثُ أكتب؟! ختم المؤذنُ نداءه فيما يُشبه ردّاً على سؤالي. الصلاةُ خيرٌ من النُوم. تنبّهتُ. صلاةُ الفجر! نظرتُ إلى ساعةِ الحائط غير مُصدّق. كنتُ غائباً تمام الغيابِ لاثنتي عشرة ساعة! رحتُ أتلُفُ في غرفةِ المكتبِ كأنني لم أكن فيها طيلة ساعاتِ الكتابة. أسمعُ وجيبَ قلبي في أذني. من أين جاء شَرَه السَرَدِ هذا؟ أنا أضيع وقتاً من المفترض

أَن أُخَصِّصَهُ لمشاريعي الأخرى. رحتُ أذرعُ غرفةَ مكتبي جيئةً وذهاباً أفكّرُ فيما أصابني. أنا لستُ على ما يُرام. مشاريعي المؤجلة فيها من الشُّخصِ ما لا تُسَعِّفُنِي ذاكرتي لحصره، ليس عِرزال بن أزرق واحداً منها، ولا حتى باسمٍ آخر! غسَلْتُ وجهي. أعددتُ كوبَ قهوة. عدتُ إلى النَّصِّ اللقيطِ الذي وُلِدَ من دون فكرةٍ أقرؤه. أحاولُ أن أُعيد عبثَ النَّصِّ إلى جذرٍ متوارٍ في ذاكرتي، موقفٍ سابقٍ، أو فكرةٍ قديمةٍ غير مكتملةٍ كنت قد أذخرتها وحنَّ أوانِ نضوجها. عجزت. لا أضلُّ لهذا النَّصِّ! ما الذي أردتُ قوله؟ ومن يكون عِرزال بن أزرق هذا الذي لا يُغري بكتابته أبداً؟! ما كدتُ أنهي تساؤلاتي حتى جاءت منيرة زوجتي تحمِلُ مرهمَ الحروق.

أنا أعرفُ القليلَ عن شُخصِ رواياتي قبل الشروعِ في كتابتها، ومن ثمَّ أتعرفُها أكثر أثناء الكتابة، تُسَلِّمُنِي نفسها طَوْعاً. تتكشفُ أمامي صفحةٌ تلو صفحة، أما بطلي المزعوم فلم أعرف عنه قليلاً قبل الكتابة، ولم يتكشف لي كثيرٌ منه أثناءها. حاولتُ أن أُكْمِلَ ما كتبتُ لعلِّي أضلُّ إلى شيء... أي شيء يُفسِّرُ لي غيابي مع شخصيةٍ أجهلُها تمامَ الجهل. فصولٌ خمسة يُمثِّلُ كُلُّ فصلٍ منها صباحاً انتقته من صباحات شخصيةٍ كهلٍ مُضطربٍ مُريبٍ مملٍّ منصرفٍ عن كلِّ شيءٍ إلا بضعة اهتماماتٍ تافهةٍ تُلْفُها الغرابة؛ قراءة مُذكراتٍ غامضة، وتطفُّلٌ على حمامةٍ تمكثُ في دكةٍ نافذته، يُزاحمها مساحتها الصَّغيرة، يرى حُلماً يومئياً لا أرى منه إلا أجزاءً مبتورة لا تُسَعِّفُنِي مُخَيَّلَتِي على إتمامها. شخصيةٌ ينبغي لها أن تُلقي بنفسِها من النافذة انتحاراً ولكنها، لسببٍ أجهله، لا تفعل. عادتني إذا ما تعثرتُ بنصٍّ، يمسِكُ عن المضيِّ بي إلى صفحةٍ

جديدة، أن أفرغ نفسي لساعة تأمل، أمضيها مُترَبِّعًا على مقعدي وراء المكتب، صامِتًا مُغمَض العينين أتفكّر بتفاصيل النص غير المكتوبة، حتى إنني أوغل في تأملي سفرًا إلى موطنِ كُتْبَتِهِ، أو استحضارًا للشخص في مكتبي. أطلبُ منها الجلوسَ على المقاعدِ أمامي، أو نتحلّق جميعنا في جلسةٍ أرضية. أتفحصُ ملامحها مُتَوَرِّدةً في حضرتي. أمنحها سِماتٍ وملامحَ لم تكن موجودةً في مُخَيَّلَتِي قَبْلًا، أزيلُ شامةً من وجنةٍ عجوزٍ متصايبية، أرسمُها أسفل شفة فتاةٍ مغناج تُثيرني كِتَابَتُهَا، أمنحُ غلظةً لصوتِ شَيْخٍ تهبهُ تَوَازُنًا يُشَبِّه شخصيته، أثقلُ لِسَانَ ثرثارةٍ أَبْطَلِيهَا بِتَأْتَاةٍ تَحْدُ مِنْ ثَرَثَرَتِهَا، وأُخصي مفتول عضلاتٍ أكسرُ عُنُوهُ وَغُرُورَهُ بجسده! أفرغ من تشكيل الشخصيات فيما هي تمثلُ أمامي مُدْعنة. أحادثُها. أستميلُها للحديث عن نفسها. أستجوبها في أي شيء داخل النص أو حتى خارجه. أتعرفُها أكثر. أدفعُها لفتح حواراتٍ فيما بينها. أستنطقُ إحداها بما يُزعج الأخرى، لعلِّي بالاستفزاز أنال بُغْيَتِي، وأكون في موضعِ المتفرّج، عسى أن تُنبِّهني انفعالاتها وحواراتها إلى مساحةٍ أغفلتُها أثناء الكتابة المتعثرة، أبني فيها جسرًا أمدُّه إلى صفحةٍ جديدة.

هذا ما أعتزمه مع تلك الشخصية الوليدة تَوًّا. أعني قبل اثنتي عشرة ساعة. لعلِّي أعودُ إلى المخطوطِ المتعثرِ بعد ساعة وأنا أعرفُ شيئًا عن عِرْزال بن أزرُق.. أي شيء يُعينني على إنهاء قصّته بقتله انتحارًا من نافذة غرفته الباردة، لينتهي النص الذي كُتِبَ بكفٍّ محروقة، أو لتكمل بقية الشخصيات النص من دونه.

مشروع رواية

«نصُّ لقيط»



صباحٌ أوّل

«.. ثم أطبق أسنانه على طرفِ ثوبه وراح يركضُ كالمجنون!».

انتفض عِرزال في سريره كأنما مسّه برق. أبقى جفنيه مُطبّقين. يستعطفُ كابوسه الأزرق الدائم، يستمهله قبل أن ينتهي به رايضًا مثل مجنون، يحاول إبقائه لعله يمنحه رؤية من يُحب. يستشعر نبض قلبه في صدغيه. يهدأ. يتلاشى طعم الملح في فيه. يُمعن التفكير. يتلّع ريقه بصعوبة وهو يمسح قطرات عرقٍ نضحتها صلعته. على هذا النحو يستفيق عِرزال بن أزرق كلّ يومٍ منذ أمس.

يفتح عينيه يتحاشى النظر إلى السقف. يلتفت صوب النافذة. الحمامة قريبة من هنا، أو أنها سوف تكون، بعد غيابٍ صباحيٍّ لا يطول. تعود حتمًا إلى الدكة البارزة أسفل نافذة غرفته، في شقته الخرساء المطلّة على البحر، والتي يسكنها منذ حوالي ثلاثين سنة وقت زواجه وفقًا لمذكراته. دكة النافذة تُشبه شرفة صغيرة مفتوحة على العالم. الحمامة دائمًا في الجوار فيما يُشبه وجودًا أزلّيًا، منذ يومٍ لم يعد يتذكّره. لعله يتذكّر وقتًا ألف فيه وجودها، في البدايات، حينما كانت تحطّ على الدكة، ضخمةً بلهاء. تهبط في ثقل بين زراير تتحرّك في خفّة وفواخيت رشيقة لا تنفك تدير رؤوسها إزاء أي نامة تصدر عن الشارع. وحدها تبدو في عالمٍ آخر. عيناها الدائريتان الحمراوان بلون الياقوت، والنقطتان السوداءوان في مُتصفيهما لا تُفصحان إلام

تنظر. هو يحبُّ النظرَ إليها. مختلفة لا تُشبه غيرها. رماديةٌ داكنة، تجلبُ الغمَّ لولا لطحه فيروزية تطوقُ عُنُقَهَا. تبدو غير مكترثةٍ لشيءٍ، تُمارِس وجودها من دون فهمٍ، مثله.

توقِظُه الشَّمْسُ كلَّ صباح. نافذته بلا ستارةٍ منذُ أسقطها التوأمان الصَّغيران في صبيحةٍ يحسبُها كلُّ يومٍ صبيحة أمس. يتذكَّر؛ سحب أحدُ الصَّغِيرين خيطها بقوةٍ على ما يبدو. انزعج في ذلك الصباح. صاح بهما. انتفضا. كانا يقفان والسَّتارةُ ملقاة على الأرض بين أقدامهما. هو يقول هي. هي تقول هو. يتذكَّر الإصبعين الصَّغِيرين، يشيرُ كلاهما صوب الآخر يتهمُه. يوغلُ الرَّجلُ في صورةٍ تُشبه الذِّكْرَى. يجلسُ أمام قماشِ الرِّسم يضربُ بريشته يرسمُ رتوشاً نهائية. يتدافعُ إليه الصَّغيران. الله! خلوةٌ بيته! تختفي الصورةُ في رأسه وقتَ يهْمُ الصَّغِيران بتقبيله. يحكُّ صلعتَه. متى كان ذلك؟ أمس. لا يهْمُ المهم أن تبقى هذه النافذة بلا ستارةٍ وفاءً للصَّغِيرين اللذين مهَّدَا للشَّمْسِ طريقاً إلى غرفته الباردة. هل كانت الحمامة هنا يوم سقطت الستارة؟ ربما، ولكن متى؟

يدعكُ عينيه بظاهرٍ كَفِيهِ. يتجاهل أسئلةَ يرميها النُّومُ على تخوم اليقظة. متى متى متى؟ يُزعجه كلُّ ما يُحيله إلى الزَّمن. هو لا يعرفُ من الزَّمنِ إلا الماضي، والماضي كله أمس. وهو لا يذكرُ من أمس إلا القليل؛ ولدتُ أمس. حطَّت الحمامةُ أمس. سقطت الستارةُ أمس. وفي اليوم ذاته، أمس، هاتَفَ طليقته فورَ استيقاظه: أَشْتاقُ للصَّغِيرين! تَقطعُ المكالمةُ فورَ تعرُّفها صوتِه: اركُضْ يا جبان!

يثأب. ينهضُ جالساً على سريره. يتناول هاتفه يُجري اتصالاً.

لا أحد يُجيب. يضيق صدره. ينظر إلى النافذة بعينين نصف مُغمضتين نحو موضع الحمامة. فرصة ألا تكون هنا! يُزيح اللحاف عن جسده النحيل. يمضي مُسرِعاً بمنامته الرَّمادية الدَّاكنة إلى مطبخه الصَّغير يجهِّز قهوته. ترك الماء على النار. هرعَ مُسرِعاً إلى خزانة في الممر يفتحها. تسقط بين قدميه جريدة قديمة مُصفرة الأوراق. يُقرَّبها إلى صدره مُغمَض العينين كأنما يُعانيقها قبل أن يدسُّها بين أشياءه في الخزانة. يُدخل كفه في كيس بلاستيكي. يُقرَّب كفه إلى أفه مبسوطة وعليها حباتٍ شعير. يُفلت عطسة. يتسِم. رائحة والدي! هو يضطرب إذا ما فكَّر في والده. يفتقده ولا يريد أن يلتقيه. هو يشتاق إلى أشياء كثيرة لا يدرِكها إلا بحضور ما لا يُحب، مثل الحمى، تجلبب كفاً حانية تلمس جبينه، تُدثِّره بلحافٍ دافئ، وتحضِّر له حساءً ساخناً يُجبهه. يتنبه إلى حركة في نافذته تقطع خيالاته. سعة النخلة تستأنف رقصاتها كلما هبَّت ريح. يحثُّ خطاه مُسرِعاً بكفِّ مُطبَّقة على شعيرٍ نحو النافذة. يتحقَّق من غياب الحمامة مخافة أن يُفزعها. نفحت وجهه ريح باردة فوراً ما فتح نافذته العارية. تبدو النخلة أمام النافذة نظيفة لامعة رطبة السَّعف. أتراها أمطرت أثناء نومي؟ التفت إلى البحر الممتدَّ بزُرْقته إلى السماء أمامه. مياه المدِّ عالية. أغمَض عينيه عن زُرْقته تُخيفه. استلَّ نفْساً طويلاً يعبئ داخلهُ رائحةً يُحبها، رائحة الدُّرق اليابس، رائحة أمس. طأطأ، فتح عينيه ينظر إلى الدكة الصَّغيرة المُعبَّرة. نشر ما في قبضته من حبوبٍ قُرب الدُّرق المتكدَّس وكومة أعوادٍ يابسةٍ وريشٍ وخيوطٍ وأسلاكٍ رفيعة. هذه الحمامة تُوشك أن تبيض! تهلَّل وجهه ثمَّ عبَس حينما رفع رأسه إلى البحر ثانية. رفع رأسه أكثر. سماؤه صَحْو.

هو يَمَقْتُ الأزرق. يَمَقْتُهُ بحرًا، يَمَقْتُهُ سماءً، وَيَمَقْتُهُ أَبًا. تُرْبِكُهُ الألوان في ذاكرته منذُ أصبحَ لكلِّ لونٍ حدثٌ يُلازمُهُ. وحدهُ الرَّماديُّ يُشْبِهُهُ، لَوْنٌ لا لونَ له ولا ذاكرة. يُشْبِهُهُ تَمَثُّلاً صَارَهُ يَارَادَتِهِ، لَوْنُ النِّهَايَاتِ، لَوْنُ الدُّخَانِ والرَّمَادِ وحُطَامِ البُيُوتِ والرُّفَاةِ، لَوْنُ العَدَمِ. يَتَذَكَّرُ عِرْزَالُ الكَهْلُ نَفْسَهُ صَغِيرًا. فِي الرَّابِعَةِ أَوِ الْخَامِسَةِ. يُدَاعِبُهُ أَبُوهُ يُلْقِيهِ عَالِيًا. تَصِيحُ أُمُّهُ خَشِيَةً أَنْ يَقَعَ. انْتَبِهْ يَا أَزْرَقُ.. سَوْفَ يَقَعُ الصَّغِيرُ! يَبْكِي الطِّفْلُ فِرْعَا. يَصْرُخُ أَزْرَقُ غَاضِبًا. يَصِيحُ بِزَوْجَتِهِ؛ وَلَدَكَ جَبَانًا يُمَسِكُ بِـ عِرْزَالِ الصَّغِيرِ ثَانِيَةً. يُلْقِيهِ فِي الْهَوَاءِ عَالِيًا غَيْرَ مَبَالٍ بِهِلَعِهِ. إِذَا بَكَيْتَ سَوْفَ أُلْقِي بِكَ بَعِيدًا إِلَى السَّمَاءِ. زَمَّ الصَّغِيرُ شَفْتَيْهِ. لَمْ يَبْكْ، لَكِنَّهُ كَرِهَ السَّمَاءَ.

أَشَاحَ بَبَصَرِهِ عَنْ صَحْوِ سَمَائِهِ. أَطْبَقَ النَّافِذَةَ وَاسْتَدَارَ يَمْشِي عَلَى مَهْلٍ نَحْوَ مَقْعَدِهِ الْخَشْبِيِّ، يُوَاجِهُ النَّافِذَةَ عَلَى مَبْعَدَةٍ بَضْعَةِ أَمْتَارٍ. لَا تَزَالُ رَائِحَةُ دَرْقِ الطُّيُورِ الَّتِي خَالَطَتْ غُبَارَ الدُّكَّةِ فِي أَنْفِهِ. أَخَذَتْهُ بَعِيدًا، بَعِيدًا جَدًّا إِلَى أَمْسٍ. يَصِيرُ لِلرَّائِحَةِ الْكَرِيهَةِ شَأْنٌ آخَرٌ إِذَا مَا أَخَذَتْكَ إِلَى زَمَنِ تُحِبُّ. هَزَّ رَأْسَهُ. لَيْسَ شَرْطًا أَنْ يَكُونَ جَمِيلًا زَمَنُكَ ذَاكَ، يَكْفِيكَ أَنْكَ كُنْتَ.

«انتظارُ ما يعود وما لا يعود»

كُنْتُ فِي الثَّامِنَةِ، أَطْوِي طَرَفَ ثَوْبِي حَوْلَ خَاصِرَتِي، أَجْلِسُ عَلَى سَحَّارَةٍ خَشْبِيَّةٍ فِي سَطْحِ الْبَيْتِ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ، سَطْحُنَا الْوَاسِعُ الرَّحْبُ. أَتَلَفْتُ بَيْنَ أَقْفَاصٍ كَبِيرَةٍ كَثِيرَةٍ. رَائِحَةُ الْأَرْضِ رَائِحَتُنَا؛ غُبَارٌ وَدَرْقُ طُيُورٍ وَشَعِيرٍ. أَتَابَعُ لَهْفَةَ وَالدِّيِ وَاضْطِرَابَهُ قَبْلَ الْغُرُوبِ. يَمَّمُ

وجهه صوب الجنوب ساهمًا، يحسبُ الوقتَ ينأيه قَلَق. يتحرَّى عودة حماماته السَّت التي أطلقها عند الحدود الجنوبية فجرًا. كانت الرِّيحُ شديدة في الصَّحراء صباح يومنا ذاك. وأنا، صغيرًا، أثقُ بعودة زواجِل والدي. لا تعني لي الرِّيحُ والمسافات شيئًا، ولا أحسبُ وقتًا لعودتها، لأنها حتمًا وإن تأخرت تعود. كلُّ من عاش في الدَّار يصيرُ من أهلها؛ حمام الدَّار لا يغيب وأفعى الدَّار لا تخون، هذا ما قالتُ لي بصيرة قبل سنتين من يومنا ذاك، جدَّة والدي، أو ربَّما جدَّة جدِّته، لا أدري فهي قديمة جدًا، أرليَّة، ساكنة في زاوية بهو البيت العربي القديم. ملتجئة سوادها، أسفل السَّلَم. لماذا أسفل السَّلَم؟ لم أسأل نفسي يومًا عن مواضع أشياء اعتدتها منذ مولدي، في بيتٍ عربيٍّ تطلُّ حُجراته الضيقة على بهوٍ داخلي غير مسقوف، بهو بصيرة التي لم أرها تفتح عينها يومًا، كأنما خيط جفناها برموشها منذ الأزل. كانت هناك أبدًا، مثل حمامة الدَّكَّة. بصيرة لا ترك مرتبتها الإسفنجية حتى لو اضطرت لقضاء حاجتها، تقضيها حيث تجلس من دون اكتراثٍ كأنها تعطش، تتأب أو تبصق. شأنها شأن أثاث البيت وأدواته، لم يتغير مكانها قط؛ الفراش في غرفة النوم، الموقد في المطبخ، أخياش الرُّز والعدس والشُّكَّر في غرفة الكيل، وسائد الجلوس الأرضية العريضة في البهو، وبصيرة، بياها السوداء، تلتصق بفراشها الأرضي أسفل السَّلَم كما لو أن ظهرها مدهونٌ بالغراء. لا أتذكُّرها في غير موضعها الأثير، تُغطِّي نصف جسدها الشفلي بلحافٍ صوفيٍّ بُنيٍّ خشنٍ صيف شتاء. تُسندُ ظهرها إلى وسادة سماوية الزُّرقة مهترئة تتوسطها بقعة صفراء. كنتُ صغيرًا جدًا لم أفكر من تكون، لكن بعدما طرد والدي

كُلُّ الْعَبِيدِ الَّذِينَ كَانَ يَشْتَرِيهِمْ مِنَ الْبَيْتِ، وَبَقِيَتْ هِيَ، فَهَمْتُ أَنْ بَصِيرَةَ
مِنْ أَهْلِ الدَّارِ.

بَصِيرَةَ جَامِدَةً عَلَى الدَّوَامِ، نَسِيَ وَجُودَهَا أحيانًا، يَحْسِبُهَا الرَّائِي
مِينَةً لَوْلَا صَوْتُ تُصَدِّرُهُ بَيْنَ دَقِيقَةٍ وَأُخْرَى، كَأَنَّمَا تُنَبِّئُهُ إِلَى وَجُودِهَا،
حِينَما تَجْمَعُ مَخَاطَ صَدْرِهَا فِي حَنْجَرَتِهَا تَحْضِيْرًا لِبَصْقَةٍ تَصَوِّرُهَا فِي
قِصْعَةٍ خَزَفِيَّةٍ تَرْبِضُ عَلَى بَسَاطِ حَصِيرٍ إِلَى جَوَارِهَا أَبَدًا. لَمْ تُخْطِئْ
هَدَفَهَا قَط. أَلْتَفَتُ إِلَيْهَا مَتَحَفِّزًا فِي كُلِّ مَرَّةٍ تُصَدِّرُ فِيهَا حَشْرَجَةً
خُنْجَرَتِهَا قَبْلَمَا تَنْخُمُ بِلِغَمِ صَدْرِهَا. أَرْفَعُ غُرَّتِي الطَّوِيلَةَ عَنْ عَيْنِي.
أُنْقِلُ بَصْرِي مُبْهِلًا بَيْنَ شَفَتَيْهَا وَالْقِصْعَةِ. خَخْخْ. أَضِيقُ عَيْنِي
أَمْعِنُ النَّظَرَ. تُحَرِّكُ فَكَّيْهَا مُبْرِطِمَةً مِثْلَ نَعْجَةٍ تَلُوكُ بِرَسِيمًا. تَف! تُلْصِقُ
بِصْقَتِهَا فِي مَتَنَصَفِ الْقِصْعَةِ. أُلَوِّحُ بِقَبْضَتِي كَأَنَّمَا أَحْرَزْتُ فَوْزًا عَلَى
صَحْبِي بِلَعْبَةِ الْكِرِيَاتِ الزَّجَاجِيَّةِ فِي سَكِّينَا الثَّرَابِيَّةِ الْقَدِيمَةِ. أَبْتَسِمُ غَائِبًا
فِي مَلَامِحِ الْعَجُوزِ: مَاذَا لَوْ كُنْتُ مُبْصِرَةً؟!

يَطَوِّفُنِي شَكِّي كَوْنِهَا كَفِيفَةً. أَجْمَعُ أَقْلَامَ التَّلْوِينِ الْخَشْيِيَّةِ أَرْسُمُ
وَجُوهًا ضَاحِكَةً، أَقْرُبُ الْوَرَقَةَ أَمَامَ وَجْهِهَا، تَبْتَسِمُ رَغْمَ إِغْمَاضِهَا.
أَقْرُبُ وَرَقَةً جَدِيدَةً تَحْمِلُ وَجُوهًا مُكْفَهَرَةً، تَعْبَسُ بِوَجْهِهَا. أَخْبِرُ وَالِدِي
بِرَدِّ فِعْلِ الْعَجُوزِ. يُفْلِتُ ضَحْكَةً مِنْ أَنْفِهِ. سَوْفَ تَقْتُلُكَ أَوْهَامُكَ يَوْمًا!
عِرْزَالِ

تَمْلِمُ عِرْزَالُ الْكَهْلُ فِي جَلِيسَتِهِ يَتَحَرَّى أَوْبَةً تِلْكَ الَّتِي شَغَلَتْهُ
بِحُضُورِهَا وَغِيَابِهَا. يَتَأَفَّفُ يَمُرُّ عَيْنَيْهِ يُمَشِّطُ تَفَاصِيلَ غَرَفَتِهِ، كَأَنَّمَا
يَرَاهَا مَرَّةً أُولَى. يَطَاطَى يَنْظُرُ إِلَى خَشَبِ الْأَرْضِيَّةِ الدَّاكِنِ وَقِطْعَةٍ

السجّاد الحمراء المهترئة الوحيدة. يدير رأسه يسارًا نحو سريره
النحاسي ولحافه الصوفيّ البنيّ القديم. يُدير جذعه ينظرُ إلى وراء
ظهره، يرى إفريزًا خشبيًا في الجدار، يحيطُ كوةٌ كان لها بابٌ ذات
يوم. يتملّى في الجدار الأبيض المصفرّ عن يمينه؛ صورتان لتوأميّه
توجعانه. يُغمضُ عينيه على وجهه، يفتحهما حمراوان لامعتان على
شقوق السقف متنهّدًا. لو أنك تنطق! يهزُّ رأسه محدّدًا في دفترٍ مذكّراته
على الطاولة الصّغيرة قرب السرير.

«صوتٌ ما ليس له صوت»

كنتُ في السادسةِ يومَ لمحتُ أفعى صغيرةً، تُرابيّة اللون مُرقّطة،
تطلُّ برأسها من شقّ الجدار في حوش الغنم في بيتنا القديم، تُخرجُ لي
لسانها المشطور كأنما تُزغرد من دون صوت. أثرتُ دُعر الدجاجات
بضراخي. ركضتُ إلى بصيرة أندش تحت لحافها مُرتعدًا. طمأننتي
العجوزُ بجُملة سمعتها للمرة الأولى؛ حمام الدّار لا يغيب وأفعى
الدّار لا تخون. انتفضتُ فرعًا يومَ سمعتُ الصّوتَ مبحوخًا، كما لو
أنه صدى لصوتٍ لم أسمع. حَبَوْتُ مُسرِعًا أبتعدُ عن فراشها وفزعني
يجاوزُ ما داهمني أمام أفعى الجدار. نظرتُ إليها من وراء كِيفي
مُبحلقًا. يُمّه بصيرة! أدارت وجهها صوب القصعة الخزفية. خخخ
نف! لم يُصدّقني والذي حينما أخبرته. يا ولدا! بصيرة عمياء صمّاء
خرساء. أمسكتُ بِكُمّ ثوبه أتوسّله أن ينتظر حتى يُنصت إليها بنفسه.
رحتُ أرجوها. يُمّه بصيرة يُمّه بصيرة! لم تُمهلني. صوّبتها في منتصف
وجهي. خخخ. نف! فقهقه والذي. احذر غدر الأفاعي يا جبان! واصل

ضَجَّكَ يَرْتَقِي السَّلَمَ إِلَى السَّطْحِ يَتَحَرَّى أُوْبَةَ حَمَامَاتِهِ الَّتِي اعْتَادَ أَنْ يُطْلِقَهَا بَعِيدًا.

بَقِيَ هَاجِسِي مِنْ ظُهُور الْأَفْعَى مَرَّةً أُخْرَى يُفْرِغُنِي، رَغْمَ إِيْمَانِ الْعَجَائِزِ بِرِكَتِهَا، وَالتَّسْلِيمِ بِأَنْ لِكُلِّ بَيْتٍ أَفْعَاءُ الْوَفِيَّةِ، وَرَغْمَ حِكَايَاتِ سَمِعْتُهَا عَنْ أَفْعَى دَارٍ هَاجَمَتْ لِصَّا تَسَلَّلَ إِلَى الدَّارِ خَلْسَةً، وَأُخْرَى تَهَزُّ سَرِيرَ رَضِيْعٍ تُهْدِئُهُ أَتْنَاءَ نَوْمِ أُمِّهِ.

أَبِي يُسَمِّي هَذِهِ الْأَشْيَاءَ خُرَافَاتٍ، أَمَا أَنَا فَأُصَدِّقُهَا حِينًا وَأُنْكِرُهَا أَحْيَانًا.

عِرْزَال

هَا هِيَ فَيْرُوزٌ وَقَدْ حَطَّتْ عَلَى دَكَّةٍ نَافِذَةٍ غُرْفَةِ نَوْمِ الْكَهْلِ، تَحْمِلُ عَوْدًا فِي مَنْقَارِهَا. اللَّطِخَةُ الْفَيْرُوزِيَّةُ فِي عُنُقِهَا تَبْدُو أَكْثَرَ تَوْهَجًا مَعَ ارْتِفَاعِ الشَّمْسِ. هُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ بِسَبَبِ لَطِخَتِهَا تِلْكَ أَسْمَاهَا فَيْرُوزٌ. بَدَأَ لَهُ الْأَمْرُ غَيْبًا أَنْ يُسَمِّي كَائِنًا لَا يَسْتَطِيعُ الْاقْتِرَابَ مِنْهُ أَوْ مَنَادَاتِهِ. مَنَحَتْهُ التَّسْمِيَةُ شَعُورًا بِالْأَلْفَةِ يَفْتَقِدُهُ مِنْذُ أَمْسٍ. أَلَقَتْ فَيْرُوزٌ عَوْدَهَا عَلَى دَكَّةِ النَّافِذَةِ. أَخَذَتْ تَلْتَقِطُ الْبُذُورَ قَبْلَ أَنْ تَدْنُو مِنْ عُشِّهَا غَيْرِ مُكْتَمِلِ الْبِنَاءِ، حَمَلَتْ عَوْدَهَا الْجَدِيدَ تَدُسُّهُ بَيْنَ الْأَعْوَادِ وَالْأَسْلَاقِ وَالرَّيْشِ وَالْخِيُوطِ. اسْتَشْعَرَ عِرْزَالٌ بَرْدًا يَنْسَلُّ إِلَى عِظَامِهِ. تَرَكَ مَقْعَدَهُ. جَرَّ خَطَوَاتِهِ بِيْطًى نَحْوَ الْمَشْجَبِ فِي الزَّاوِيَةِ. مَدَّ يَدَيْهِ إِلَى شَالٍ فَيْرُوزِيٍّ وَعَيْنَاهُ عَلَى الْحَمَامَةِ مَخَافَةً أَنْ تَطِيرَ. أَلْقَى الشَّالَ فَوْقَ كَتْفَيْهِ بِحَذَرٍ. ثَبَّتَ دُبُوسًا فِي الشَّالِ أَسْفَلَ عُنُقِهِ بَعْدَ أَنْ لَفَّهُ بِأَحْكَامٍ. جَلَسَ عَلَى مَقْعَدِهِ ثَانِيَةً، يَحَاوِلُ أَلَّا يُبْعِدَ عَيْنَيْهِ عَنِ الْحَمَامَةِ. يُتَابِعُ مَشْيَهَا. حَرَكَةُ

عُنُقُهَا بَيْنَ تَطَاوُلٍ وَانْكَمَاشٍ. زُرْقَةُ السَّمَاءِ تَأْخُذُهُ بَعِيدًا عَنْ فَيْرُوزٍ إِلَى
أَمْسٍ. تَبًّا لَكَ يَا أَزْرَقُ مَاذَا تُرِيدُ! يَعْقِدُ حَاجِبِيهِ مُعَاوِدًا إِمْعَانَ نَظَرِهِ فِي
الطَائِرِ الرَّمَادِيِّ.

«انتظار أوبة الثلث»

من سطح البيت، لمَحَ والذي نقطة سوداء في الأفق. خَفَقَ قلبي
إِزاءَ تحفُّزِهِ، يقف على أطراف أصابعه مشربب العُنُق. تركتُ السَحَّارَةَ
الخشبية التي أجلس عليها. أسدلتُ الثَّوبَ على ساقِي بعدما فككتُ
رباط طرفه عن خاصرتي. سرتُ على مهل حافياً أتُركُ آثارَ خطوِي
على أرضِ السَّطْحِ المغبرة. يمنحني تهشُّمُ الدُّرُقِ الجافِّ تحتَ قدمِي
شعوراً أحبُّه. اقتربتُ من والذي أمسكُ جزءاً من ثوبه بيد، وبيدي
الأخرى أرفع عن عيني غُرَّتِي. نظرَ إليَّ بِاسِمًا، ثُمَّ عاودَ النظرَ إلى
النَّقْطَةِ السَّوداءِ يهزُّ رأسه: غادي. لفظَ الاسمَ بصوته الغليظ. صوته
جليّ دائماً بعكس صوت بصيرة الهامسِ المبحوح. أومأتُ برأسي
أوافقُ قوله. غادي؛ الأول والأسرع دائماً. رحتُ أُعَدِّدُ على أصابعي
الصَّغِيرَةِ. بقيَ سفَّار.. عوَّاد.. رابحة.. وزينة ورخَّال. حطَّ غادي
على سطح القفص الكبير يتفقد دأره، قفص الحمامة الأم. اقتربتُ
منه بحبور، أُكَوِّرُ شفتي أحاكي هديله. غروووغ غروووغ. أمسكُ
والذي بوعاء الشعير يُمعن نظره جنوباً. ظهرت بعيداً ثلاثُ نقاطٍ
سوداء. بدا والذي قَلْبًا وهو ينثر الشعيرَ لـ غادي في حين ينظرُ إلى
الأفقِ وقتَ المغيب. تتممَ وهو يقف على أطراف أصابعه مُشربب
العُنُق. سفَّار وعوَّاد ورابحة. أنا لا أعرف كيف لوالذي أن يتعرَّف

حماماته وهي كالشَّامَاتِ فِي كَيْفِ السَّمَاءِ وَقْتَ الْغُرُوبِ. أَنَا أُنَعْرِفُهَا
 وَقْتَ تَصِيرُ قَرِيبَةً بِسَبَبِ أَلْوَانِ حُبْلُهَا الَّتِي تُطَوَّقُ قَوَائِمَهَا. هَزَّ رَأْسَهُ
 بِأَسْفٍ. لَنْ يَعُودَا. كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّهُ يَقْصِدُ زِينَةَ وَرَحَالَ، الْأَخْوَانَ غَيْرِ
 الشَّقِيقِينَ لِلْحَمَامَاتِ الْعَائِدَةِ. هِيَ الْمَرْءَةُ الْأُولَى الَّتِي يُفْلِتُهُمَا فِيهَا بَعِيدًا
 عِنْدَ الْحُدُودِ. صَغِيرَانِ، رُبَّمَا أَنَّهُمَا التَّعَبُ وَالْعَطَشُ وَجَنُونَ الرِّيحِ.
 نَزَلْتُ إِلَى الْبَهْوِ. مَرَرْتُ بِبَصِيرَةٍ فِي طَرِيقِي إِلَى حَوْشِ الْعَنَمِ. كَثُرَتْ
 قَوْلَ وَالِدِي. لَنْ يَعُودَا. هَمَسْتُ بِصِيْرَةٍ. حَمَامُ الدَّارِ لَا يَغِيبُ. فَاتَنِي
 أَنْ أَرَاهَا وَقْتَ نَطَقَتْ. اسْتَدْرْتُ بِسُرْعَةٍ أَنْظُرُ إِلَيْهَا بِتَوَقُّ. مَاذَا قُلْتَ؟
 أَجَابَتْنِي بِصَفَّةٍ فِي قَضَعَتِهَا. تَف!

عِرْزَال

تَرَكَ عِرْزَالُ مَقْعَدَهُ إِلَى الْمَطْبَخِ يَتَسَلَّلُ مِثْلَ لِحْصٍ. سَكَبَ الْمَاءَ
 السَّاخِنَ فَوْقَ مَسْحُوقِ الْقَهْوَةِ. أَحَاطَ الْكُوبُ بِكَفِّهِ يَسْتَمِدُّ دِفْعًا.
 أَقْفَلَ إِلَى مَقْعَدِهِ فِي غُرْفَةِ النَّوْمِ. لَمْ يَجِدِ الْحَمَامَةَ عَلَى الدَّكَّةِ. طَارَتْ
 لِتَجْمَعَ مُزِيدًا مِنَ الْعِيدَانِ قَبْلَ أُوَيْتِهَا، حَمَامُ الدَّارِ لَا يَغِيبُ. ارْتَشَفَ
 قَلِيلًا مِنَ قَهْوَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَضَعَ كُوبَهُ عَلَى طَاوِلَةٍ صَغِيرَةٍ إِلَى جَوَارِهِ.
 حَذَّقَ فِي النَّافِذَةِ وَتَلَالِ الذَّرْقِ عَلَى دَكَّتِهَا. كَانَ يُرْعِجُهُ فَزَعُ الطُّيُورِ
 فِي نَافِذَتِهِ وَهَرَبَهَا كُلَّمَا انْتَبَهَتْ إِلَى دُخُولِهِ الْغُرْفَةِ. وَكَانَ يَغْضِبُ كُلَّمَا
 دَفَعَهَا الْخَوْفُ إِلَى الْفِرَارِ بَعِيدًا. حَتَّى بَطَّءَ حَرَكَتَهُ وَحَذَرَهُ لَمْ يَجِدْهَا.
 صَارَ يَدْخُلُ غُرْفَةَ نَوْمِهِ بِظَهْرِهِ. جَرَّبَ يَوْمَ أَمْسٍ أَنْ يَلْجَأَ الْغُرْفَةَ مُتَقَهِّقَرًا،
 مُتَظَاهِرًا بِعَدَمِ انْتِبَاهِهِ إِلَى طُيُورِ الدَّكَّةِ وَرَاءَهُ. يَنْظُرُ إِلَى الزَّرَازِيرِ
 وَالْفَوَاحِشِ وَالْحَمَامَةِ فِي الْمِرَاةِ أَمَامَهُ. الْغَرِيبُ أَنَّهَا لَمْ تَهْزُبَ! تَجْفَلُ

عند دخوله وحسب. تنكمش أعناقها. تترقّب. توشك أن تطير لكنها لا تفعل. تكتفي بالنظر إلى ظهره متأهبة. يجلس إلى مقعده مُقابل المرأة، يُراقب حركة الطيور وراء ظهره. تنظر إليه بحذر قبل أن تطمئن إلى سهوه عنها. يستدير برفق. تتطاير فرعة فور ما تقع عيناه عليها. يصرخ. جبانة! وحدها الحمامة الرمادية فيروز صارت أقلّ حذرًا إذا ما التزم مكانه، فيما يُشبه اتفاقًا ضمنيًا، وراء المساحة بين النافذة والمقعد الخشبي.

«مناوشة شكّ ليقين»

نهضت قبيل الشروق. زعبت من ماء بئرنا المجنونة أندوَّق قليله قبل الشرب. منحت البئر ماءً مالِحًا في ذلك اليوم، سوف يكون يومًا صعبًا، هكذا كنا نتلمّس طالع أيامنا نبوءةً، إن جاء ماء البئر عذبًا استبشرنا خيرًا، وإن جاء مالِحًا عشنا يومنا في خوف. ركضت إلى الأعلى لعلّ زينة ورخال قد استدلاّ طريقًا إلى سطح الدّار، دارهما. وجدتُ والدي وقد سبقني على غير دأبه. يقف بجسده الطويل يواجه الجنوب ساهمًا. لم يتبّه لمجيئي. مرّرت نظري أعلى الأقفاص المفتوحة وداخلها. لا أثر. رفعتُ ثوبي أطوي طرفه أعقده حول خاصرتي. جلستُ فوق سحّارتي الخشبية وراء والدي أرنو صوب الجنوب مثلما يفعل. أتحرّى نقطتين سوداوين في الأفق. لا حمّام بين زراير خاطفةٍ ويمامٍ يمسحُ الأرض بنظره بحثًا عن فُتات. طالَ انتظارنا ووالدي في وقفته ثابتٌ مثل نخلة، يمشطُ السّماء بنظره بين ظلمةٍ ونور. ألم تقلّ إنهما لن يعودا؟

انتفض حينما قطعْتُ شروده بسؤالِي. تنبَّه إليَّ أَجْلِسُ وراءه. استدار يلتفتُ بوجهٍ لا يحملُ تعبيرًا. أشارَ بسبَّابته إلى رأسه. هذا يقول لن يعودا. هبطتُ سبَّابته إلى صدره. وهذا يقول رُبما. صمتَ واليدي قليلًا. تنهَّدَ قبل أن يُحدِّثَ نفسه. صغيران والمسافةُ طويلة والريحُ شديدة. رفعتُ ساقِيَّ أترَبِّعُ فوق السَّحَّارَةِ الخشبيةِ أهْمِي نفسي لجلسةٍ طويلة، أفكرُ في كلام والدي. سارَ نحو السَّلَم. صحتُ به. بصيرة تقول.. صاحَ يُقَاطِعُنِي. بصيرة لا تقول! هبطَ السَّلَم من دون أن يلتفت إليَّ. اختفى في الأسفل. جاءَ صوته مُرتفعًا. لا تنتظر، وحده الزَّاجِلُ يعود، لم يكونا، لن يعودا!!

عِرْزَال

تأخرت فيروز في رحلتها. مدَّ عِرْزَالُ عُنْقَه يمسحُ ببصره دَكَّة النافذة، تُراها اختفت في الزاوية موضع ما سوف تُصَيِّرُهُ عُنْشًا. لا شيء. انقبضَ صدره. أتراها عثرت على مكانٍ آخر تضعُ فيه بيضتيها؟ حطَّ بُلْبُلٌ على سَعْفَةِ النَّخْلَةِ. بدا مضطربًا كثير الالتفات. الطيورُ لا تُطيلُ البقاء على السَّعْفِ المزدحم بالخوص المطواع للريِّح. الربيعُ على الأبواب، لو أنني أقتلَعُها وأضعُ مكانها سِدْرَةً قوية الأغصان تُغري الطيورَ بالبقاء مُدَّة أطول؟ تنهَّدَ يهزُّ رأسه. ولكن النَّخْلَةُ من أهل الدَّار. لا يزال الطيرُ يتلَقَّتْ قلقًا فوق السَّعْفَةِ غير المترنة، يفتحُ جناحيه ويُطبِّقُهُما مُتردِّدًا يوشِكُ أن يُخلِّق. عينا عِرْزَال تخونانه تنظران إلى السَّمَاء. تهبطان إلى البحر. يُمرُّ ظهرُ إبهاميه أسفلَ عينيه يمسحُ دمعًا. يسمعُ صوتَ البُلْبُلِ هامسًا. عِرْزَال! حَمَامُ الدَّارِ لا يغيب! يلتفتُ إلى

طير السَّعْفَةِ بسرعة. لا يجده في الجوار. يحكُّ صلعته مستغربًا. تذكر عِرزال فيروز التي طال غيابها. أتراها تاهت في السَّماء؟ هل ابتلعتها الزُّرْقَةُ هي الأخرى؟ ما كاد يُنهي تساؤله حتى ظهرت تحمِلُ ورقة شجرٍ يابسة، تصفّق جناحيها هبوطًا إلى موضعها. دشت منقارها بين الأعوادِ تُسوي عُشَّها قبل أن تطير ثانية.

«مِنْحَةُ الْعَقْلِ وَمِنْحَتُهُ»

لم أفهم. لماذا أطلقَ والدي رَحَالَ وزينة جنوبًا عند الحدودِ وهُما ليسا مثل البقية، لماذا انتظر عودتهما ما لم يكونا؟! بقيتُ مُترَبِّعًا على سَحَّارَتِي الخشبية أنتظر، حائرًا بين الاثنين؛ أؤمنُ بما يقوله والدي وأرفضه، أكفُرُ بما تقوله بصيرة وأرغبه. هبطتُ السَّلَمَ بعد ارتفاع الشَّمْس. أفرغتُ قِصْعَةَ بصيرة من بُصَاقِها. أعدتها نظيفةً إلى مكانها الدائم وأنا أنظرُ إلى العجوز. جلستُ على الأرض فوق بساط الحصير إلى جانبها. رحتُ أسمعُها وأنا أحدثُ نفسي. أزرق يقول وحده الزَّاجِلُ يعود، وأنا أقول كما قالت بصيرة حمام الدَّار لا يغيب. كنتُ أبطلقُ في ثغرها لعلِّي أحظى برؤية حركة شفيتها وهي تنطق. سعلت العجوز. تحشرج الصَّوْتُ في حنجرتها. راحت تستجمع بلغمها، تُقلِّبه في فمها. مددتُ ساقِي. أزحتُ بِقَدَمِي القِصْعَةَ الخزفية أبعدُها عن موضعها الدائم بضعة أشبار. نقلتُ بصري بين شفتي العجوز وقصعتها. خخخ. تف. لم أستغرب حينما استقرت بصقة بصيرة في قُعرِ القِصْعَةِ!

عِرزال

نهضَ تاركًا مقعده، يجرُّ خطاه إلى حمامه المؤجل بعد مراقبة فيروز وشرب قهوته الصباحية. حمامه لا باب له. هو يكره الأبواب الموصدة. يخاف ما تصوّره مُخيّلته وراءها. أفكّها، أزيلها يزول ما وراءها! هذا ما قرّره أمس. لا باب في مسكنه سوى باب الشُّقّة الرئيس. تجاوزَ عتبة الحمام دخولاً. وقف أمام المراة يُحدّق في وجهه. كان رماديًا مثل منامته. جفناه مرتحيان على عينيه الشّهلاوين. انتزعَ دُبوسَ شالِه الفيروزي. أرخى الشّال. مرّر ظاهرَ كفّه على ذقنه. تحسّسَ شعرةَ الأشيب النابت. غريب! كنتُ صغيراً يومَ أمس! غارَ رأسه بين كتفيه. قطّبَ حاجبيه. ألصقَ فكّه السفلي بركبته ونفخَ صدره: غروووغ غروووغ.

* * *



صباح ثانٍ

35

«... أَخَذَ يُلَوِّحُ بِيَدَيْهِ. يَصِيحُ بِهِمَا: رَحَّال.. زِينة! ثُمَّ أَطْبَقَ أَسْنَانَهُ عَلَى طَرَفِ ثَوْبِهِ وَرَاحَ يَرْكُضُ كَالْمَجْنُونِ!».

كَوَّرَ جَسَدَهُ تَحْتَ لِحَافِهِ. مَنَامَتُهُ الرَّمَادِيَّةُ تَلْتَصِقُ بِجَسَدِهِ الْمَتَعَرِّقِ. أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ بِشِدَّةٍ يَتَظَاهَرُ بِالنَّوْمِ. هُوَ لَا يَرِيدُ لِهَذَا الْكَابُوسِ أَنْ يَنْتَهِيَ. هَذَا شَيْءٌ يُشْبِهُ الْإِبْتِزَازَ! أَنْ يَصِيرَ لِقَاؤُكَ بِمَنْ تُحِبُّ فِي إِطَارِ كَابُوسٍ؛ يَعْنِي أَنْ تَعْقِدَ صَدَاقَةً مَعَ كَوَابِيسِكَ بِصِفَتِهَا أَحْلَامًا. نَظَرَ إِلَى النَّافِذَةِ. فَيَرُوزُ رَابِضَةً فِي زَاوِيَةِ الدَّكَّةِ. مَدَّ يَدَهُ إِلَى الطَّائِلَةِ الصَّغِيرَةِ قُرْبَ سَرِيرِهِ. تَنَاوَلَ هَاتِفَهُ فِيمَا يُشْبِهُ فَرَضًا صَبَاحِيًّا مِنْذُ... مِنْذُ أَمْسٍ. أَلْصَقَ السَّمَاعَةَ بِأُذُنِهِ. أَشْتَاقُ لِلصَّغِيرَيْنِ. طَلِيقَتُهُ لَا تَرِيدُ أَنْ تَنْسَى. أَرْكُضُ يَا جَبَان! ثُمَّ أَقْفَلْتُ الْخَطَّ. رَكَضَ عِرْزَالٍ إِلَى الْمَطْبَخِ يَغْلِي الْمَاءَ.

«فَاقِدُ الشَّيْءِ، قَدْ يُعْطِيهِ»

أَوْشَكَتِ الشَّمْسُ عَلَى الْمَغِيبِ. السَّمَاءُ تَشَوُّبُهَا حُمْرَةٌ كَثِيْبَةٌ، وَأَنَا لَا أَزَالُ أَنْظُرُ فَوْقَ سَحَّارَتِي الْخَشْبِيَّةِ. تَمَلَمَلْتُ فِي جِلْسَتِي وَالسَّمَاءِ خَالِيَةٍ إِلَّا مِنْ نَتْفِ غَيُومٍ. نَهَضْتُ أَنْفَضُ الْغُبَارِ عَنْ ثَوْبِي. مَشَيْتُ نَحْوَ قَفْصِ الْغَائِبَيْنِ أَدَسْتُ كَفَّيَّ فِي جَيْبِي الثَّوْبِ. الْحَمَامَةُ الْأُمُّ، دَاخِلُ سَحَّارَةِ خَشْبِيَّةٍ غَطَّاهَا الذَّرْقُ، تَرَقَّدُ عَلَى فَرْخَيْنِ جَدِيدَيْنِ تَنْظُرُ إِلَيَّ بِاحْتِرَاسٍ وَغَضَبٍ لِأَنِّي تَخَلَّيْتُ عَنْ صَغِيرَيْهَا فِي تِيهِ الصَّحَرَاءِ. مَسْكِينَةُ الْحَمَامَةُ

الأم، كأنما خُلِقَتْ من أجل أن تفرخَ طيورًا تنجب، وتعودُ بشرط غياب.
مددتُ ذراعي أنوي أن أمسح بكفِّي الصَّغيرة على ظهرها أعزِّيها.
غاصت رقبُتها في صدرها تهدلُ مُغتَاظة. غرووووغ. كدتُ ألاْمِسُ
ظهرها لولا أن عاجلتني تضربُ كفِّي بجناحها. كفِّي قريبة ما زالت.
أناوِرُها. زعلانة؟ عاجلتني بضربةٍ أخرى أشد. سحبتُ ذراعي. لا
بأس. أمثابصيرة تقول حمام الدَّار لا يغيب. ظلَّت الحمامة تُراقِبُ
كفِّي العائدة إلى داخل جيبِي. ابتسمتُ لها وقد هدأ خوفُها. حتى أنتِ
تُصدِّقين أمثابصيرة. غرووووغ.

عرزال

دخلَ غُرفته بظهره حذِرًا. اقترب من النافذة متجاوزًا حدودَ اتفاقٍ
ضمِنِي مع فيروز. استدارَ ببطءٍ يواجه النافذة. انتفضت الحمامة. مَشَتْ
إلى حافة الدَّكَّة كاشِفةً عن بيضتين في وسط العُش. أطلقت جناحيها
للريِّح. جحظت عيناه وهو يُحدِّقُ في العُش. أسندَ كفَّيه إلى رأسه
فاغِرًا فمهُ على اتساعه. طيري يا جبانة! عيناه على العُش ما زالت.
كيف لها أن تترك بيضتيها على هذا النحو؟ كزَّ على أسنانه غيظًا. فتحَ
النافذة غير مصدِّق. نفحته رِيحٌ بارِدة. أجفل. سوف تتجمد البيضتان!
قطعَ الغرفة جيئةً وذهابًا يقضمُ أظفاره. حمامةٌ غبية جبانة! ينظرُ إلى
النافذة وهو يركنُ في إحدى زوايا الغرفة. البيضتان في عُشِّهما من دون
فيروز. ضربَ الأرض بقدميه مثلَ طفلٍ حائِقٍ يتمسِّكُ بشيءٍ يوشك أن
يفقده. فيروز غير جديرة بكُما! صرخ. تعالي، تعالي أرجوكِ من أجل..
من أجل الـ...! وقف على أطرافِ أصابعه ينظرُ إلى البيضتين. على

وجهه شبَّح ابتسامةً كأنه توصَّل إلى شيءٍ ما داخل رأسه. حثَّ خطوهُ إلى دَكَّة النافذة. حملَ البيضتين في كفِّه المرتعشة. دفءُ فيروز على قِشرتهما لا يزال. حدَّقَ فيهما كأن بياض القشرة يشفُّ عمَّا بداخلهما. كائنان في وضعٍ جنينيٍّ وديعانٍ مُطمئنان. عززال على وشك البكاء؛ لمعان عينيهِ، رعشةُ شفته السفلى واختلاجٍ منخريه. راحَ يجوبُ غرفته يُحدِّث نفسه. كفُّه مبسوطةٌ تحت البيضتين. زينة ورخَّال! نعم، أنثما زينة ورخَّال! كان يحلُم بمثلِ هذه اللحظة مُنذ أمسٍ طويل. هزَّ رأسه يضحك. حمامُ الدَّار لا يغيب.

«زُرْقَةٌ تَفْتَحُ أَبْوَابَهَا عَلَى مَوْعِدٍ مُسْتَحِيلٍ»

أُذْكَرُ وَالِدِي مُنَحْنِيًّا عَلَى قَفْصِ حَمَامَاتِهِ السَّتِّ فِي الصَّحْرَاءِ العارية قُرْبَ الحدود، قَفْصُ نَصْفِ كُرْوِيٍّ دَقِيقِ الْأَسْلَاكِ. كَانَتِ الرِّيحُ شَدِيدَةً تَصْفَعُ أُذُنِي وَتُبْعِدُ غُرَّتِي عَنْ جَبِينِي. يَفْتَحُ وَالِدِي بَابَ الْقَفْصِ وَيَهْشُ عَلَى حَمَامَاتِهِ. تَطِيرُ الْحَمَامَاتُ تَبَاعًا. أُنْصِتُ إِلَى صَفَقِ أَجْنَحَتِهَا مَعَ هَجِيجِ الرِّيحِ. أَنْظُرُ إِلَيْهَا وَاثِقًا فِي عَوْدَتِهَا إِلَى سَطْحِ الْبَيْتِ، رَغْمَ الرِّيحِ الْهَائِجَةِ. رَاحَتِ الْحَمَامُ تَحْوُمُ فِي سَمَائِنَا الزَّرْقَاءِ قَبْلَ أَنْ تُحَدِّدَ وَجْهَتَهَا شَمَالًا صَوْبَ الْمَدِينَةِ. حَلَّقَ غَادِي أَوَّلًا، تَبَعَهُ أَشْقَاؤُهُ سَفَّارٌ ثُمَّ عَوَادٌ وَرَابِحَةٌ بِسُرْعَةٍ، فِي حِينِ حَطِّ الْفَرَّخَانِ غَيْرِ الشَّقِيقَيْنِ رَخَّالٍ وَزِينَةٍ عَلَى الْأَرْضِ، أَعْرِفُهُمَا مِنْ صِغَرٍ حَجْمَيْهِمَا وَلَوْ نِي حَجَلَيْهِمَا. لَمْ رَخَّالٌ حَجَلٌ سَمَاوِيٌّ الزَّرْقَةُ وَلَمْ زِينَةُ حَجَلٌ وَرَدِي. ارْتَبَكْتُ لِرُؤْيَيْتِهِمَا عَلَى ذَلِكَ النَحْوِ، مُرْتَبِكًا يَقْتَرِبَانِ مِنَ الْقَفْصِ يَلُودَانِ بِهِ. صَفَّقَ وَالِدِي. فَتَحَ ذِرَاعَيْهِ يُفَرِّعُهُمَا يَحُثُّهُمَا عَلَى اللَّحَاقِ بِالْبَقِيَّةِ. غَيْرًا وَجْهَتَهُمَا يَسِيرَانِ

بتعثرٍ إليَّ عوضًا عن القفص. أقعيتُ مثلَهُمَا فأتِحا ذراعيَّ للحمامتين. شيء من قلق انتابني. بوَدِّي أن أعانقهما. ضرب والدي الأرض بقدميه وهو يصبح. تملكهُما الذُّعر. غَيَّرا وجهتُهُما ثانيةً. يُحلِّقان على ارتفاعٍ منخفضٍ ويحطَّان على الأرض. زينة ورَّخال يعرفان ما ينتظرنا في السَّماء. هرع والدي وراءهما. يُصَفِّقُ بقوةٍ ثُمَّ يَدُسُّ إصبعين أسفل لِسانه ويُصَفِّر. هزبا إلى السَّماء يحومان فوقنا قبل أن يطيرا في اتجاه المدينة أخيرًا. مكثتُ أنظر إليهما يُخَيِّلُ لي أنهما يلتفتان وراءهما، ينظران إليَّ أثناء تحليقهما. أرسلتُ نظري وراءهما إلى أن ابتلعتُهُما الزُّرقة. كنتُ أَرَدُّ في سِرِّي اسميهما، وأنا الذي أطلقتُ عليهما الاسمين في اليوم الرابع من خروجهما من بيضتَيْهما؛ زينة ورَّخال.

عرزال

تنبَّه إلى البيضتين في كَفِّهِ وقد فقدَا دِفءَ فيروز. ارتبك. أطبق كَفِّهِ عليهما برفق. قَرَّبَ كَفِّهِ إلى شفثيه وأخذ ينفُخُ ببطء. عبث! أعادهما إلى العُشِّ وأطبق زجاج النافذة. ظلَّ ينظرُ بعيدًا يبحث عن حمامته الجبانة. لعلَّها المرأة الأولى التي تبيضُ فيها! حمامةٌ غبية! هي لا تعرف ما في داخل البيضتين، لو أنها تدري لصفعت كَفِّي إذا ما مددتُها نحوها عوضًا عن الهرب! البحرُ أمامه على مدِّ البصر، عالي الموج. لأول مرَّة منذُ أمسيه لا يُبعد نظره عن البحر. يُحدِّق في أواجه بعينين حمراوين ناضحتين بالكرامية.

يغيب في ذكرى بدت بعيدة، ليست أكيدة. كان بسرِّ واليه الأبيض الداخلي يقطر ماءً، محمولاً بين ذراعي والدِه، وأُمُّه تصرُخ

على رمال السَّاحِل، بعد أن خاضَ أزرق في الماءِ مَوغلاً في العمقِ حتى كَتَفَهِ. همسَ بأذن الصَّغير. جرَّب الغرقَ مرَّةً، تتعلم السَّباحة. جرَّب الغرقَ مرَّات. ابتلع ماءً كثيرًا. أوشك أن ييكي. إذا بكيتَ سوف أتركك للغرق! ظلَّ يضربُ الماءَ بكَفِّهِ. يُحرِّكُ ساقِيهِ في كلِّ اتجاه. يقتربُ من أبيه يمدُّ له ذراعِيهِ. يتشبَّثُ به يحوِّطُ عُنُقَهُ. يدفعه أبوه بعيدًا عنه يُخَيِّرُهُ بين أن يموت غرقًا أو أن يصيرَ رجلًا يُجيدُ السَّباحة. املاً رثيكَ بالهواءِ حتى تطفو... اسبح يا ولد ولا تبك، اسبح! لم يسبح. لم يُتقن السَّباحة قط. لم ييك، لكنه كرهَ البحر.

أشاحَ بوجهه عن البحرِ هربًا من ذاكرتِهِ الزرقاء. حدَّق في البيضتين الباردتين يتناهبه قلق. ابتعد عن النافذة بضع خطواتٍ إلى الوراء. كيف يتحاشى الأزرق؟ كيف يتجنَّب مواجهة فيروز، يُبقي الجبانة على دَكَّة النافذة، يختفي عنها ويكسبُ ثِقَتَهَا إلى حينِ تفقس بيضَتَيْهَا؟ رفعَ رأسه إلى أعلى الجدار. لو أن للنافذةِ ستارة؟ كان لهذه النافذةِ ستارة! أجهش.

«تَحَالَفُ الْأَضْدَادُ ضِدَّ قَلِيلِ حِيلَةٍ»

بلَّلت دموعي اللَّحافَ فوقَ ساقِي بصيرة. لم يعودا! كنتُ مُغْمُوضَ العينين لعلَّها تنطق، تُطمئنني أنهما لن يطبلا الغياب. مسحْتُ على شعري. رفعتُ رأسي أنظرُ إليها. ملامحُها هدوء وسلام. وجهُها إلى سقْفِها؛ باطن السَّلَم الذي يبعُدُ عن رأسها مسافة ذراعين، تبدو في عالمٍ آخر. صرتُ أنظرُ إلى سقف بصيرة، يبدو قريبًا بعيدًا. يُمَنَّه بصيرة! خخخ. ضغطتُ على ساقِها لعلَّها تنطق. قولي شيئًا أدارت رأسها.

تَف! رفعتُ وجهها ثانيةً إلى الأعلى حيث باطن السَّلَم. أَمَسَكْتُ بِكُمَّ
 ثَوْبِهَا أَصْرُخ. يُمُّهُ بصيرة! مرَّ بنا والدي يَجُرُّهُ صُراخي. صَاحَ بي. يا
 ولدا! انحنى إلى العجوز. راح يُصَفِّقُ بِكَفَّيْهِ صَفَقَاتٍ متتالية عند أذُنِهَا.
 يدشُّ لِصَبْعِيهِ تحتَ لسانِهِ يُصَفِّرُ. لم يَهْتَزَّ للعجوزِ جَفَنٌ. عمياء صمَّاء
 خر ساء! قال لي ثم أشارَ إلى رأسِهِ. يا صبي! لا عقل لك؟! نهضتُ
 أَرَكُضُ إلى السَّطْح. أدركتُ آخر السَّلَم حين جاءني صوتُ والدي.
 ابكِ يا ولدا! ابكِ وانتظر ما لن يعود! بكيت.. بكيتُ غيابَ زينة ورخال،
 وصمت بصيرة، وقسوة والدي.

عرزال

خرجَ من نوبةٍ نشيجِهِ. نظَرَ ناحية النافذة. لن أضعَ سِتارةً على
 هذه النافذة. على فيروز أن تتخلَّى عن جُنيها، وعلى هذا الأزرق أن
 يفهم! انتبه إلى وجودِ فيروز متكوِّرةً على بيضَتَيْهَا. قطعَ المسافةَ بين
 سريره والمقعد الخشبي يحبو مثل فهدٍ بين أحراشٍ يتخفَّى عن فريسة.
 جلسَ على مقعده مُتَسَمِّراً. أطرافُهُ باردة مرتعشة. شالهُ الفيروزي على
 المشجبِ في الزاويةِ غير بعيد. الماء الساخن جاهزٌ في مطبخِهِ. خَشِيَ
 أن يُخيفَ الحمامة إذا نهَضَ إلى حيث شالِهِ أو إذا سارَ إلى المطبخ.
 سَحَبَ كَفَّيْهِ إلى داخلِ كُمَيِّ منامَتِهِ الرَّمادية. قَرَّبَهُمَا إلى فِيهِ وصار
 ينفُخ. قَوَّسَ ظَهْرَهُ وَضَمَّ سَاعِدَيْهِ إلى صدرِهِ يُمعِنُ النظرَ في فيروز.
 يتسَمِّمُ في حينِ يصطَلِّكُ فِكَاةً من البرد. فيروز ليست جبانة. فيروز
 تُجِبُّ صغِيرِيهَا. غروووغ. هزَّ رأسَهُ ضاحِكًا من دون صوت. ضحكته
 لم تستمر طويلاً حينما تنبَّه إلى زُرْقَةٍ ما وراء النافذة. يُقَطِّبُ حاجبيه.

يتذكّر. طَوْقُهُ أبوه بذِراعِهِ يسحبُهُ نحو السَّاحِلِ مثل خرقَةٍ بالِيَةٍ مُبْتَلَّةٍ. على الرَّمْلِ في شِبْهِ إغْمَاءٍ. انحنتُ أم عِرزال على صغِيرِها تَلْفُهُ بمنشفَةٍ وهي تبكي. استفرغَ الماء المالح على جسده. الماء المالح حليفُ الشؤم كما كانت تُخبرُهُم بنزُهُم المجنونة في البيت القديم. هل أخبرتهم بذلك حقًّا؟! فتحَ عينيه. تنفَّسَ بعمق. رأى والده غير بعيدٍ يُشعلُ لُفافةً تبغ، يهزُّ رأسه، وينظرُ إليه بحسرة: جبان! أنا لا أنجب الجبناء.

مضت ساعاتٍ قضاها عِرزال على مقعده الخشبي يُقابل النافذة. أشبهُ بتمثالٍ، لولا رعدة جسده. وحده الظلامُ يمنحُك أمانًا في ظرْفِكَ هذا. لن أتحركَ قبل مغيب الشَّمْسِ، حينها لن تشعري بحرکتی يا جبانة. فيروز أيضًا لم تتحرَّك. راقِدةٌ على بيضتَيْها تنظرُ بعيدًا في الأفق كمن يتحرَّى عودة غائب.

«أفعى الدَّارِ لا تخون»

كنتُ أجلسُ على الأرضِ في القفصِ الكبير. قفصُ الحمامةِ الأم. أنتشِقُ رائحةَ الغُبارِ والدُّرَقِ اليباس. أضُمُّ ساقَيَّ إلى صدري وأنظرُ إلى الفرخين شقيقَي زينة ورخال في عُشِّهما داخل السَّحارة. كلاهما في حجمِ إصبع. مُطبَّقةٌ أجفانهما مثل بصيرة. يرتعشان في غيابِ أُمِّهما التي خرجت من القفص، وحطَّت تلتقطُ شعيرًا ألقاهُ والدي على أرضِ السَّطح. هل يُعوِّضُ حضورُ البعض غيابَ بعضٍ آخر؟ لن أَسْمِيهما زينة ورخال لأن صاحِبَيَّ الاسمين سوف يعودان. بهتُ حينما ظهرَ رأسُ الأفعى تُرابِيَّة اللون المُرقَّطة في شقِّ صغيرٍ في

جدار زاوية القفص. ضمنت ساقِيَّ إلى صدري أكثر أطوْقُهُمَا بذراعيَّ بشدَّة. أراقِبُ الأفعى الصَّغيرة أخفي فزعي. بوْدِي لو أنادي والذي الذي لا يؤمن بوجود أفاع في البيت ليرى بعينه. ابتلعتُ لِساني. قطَبْتُ حاجبيَّ بشدَّةٍ أهرُّ رأسي كأنما أحاولُ إنزال عُزَّتِي على عينيَّ أكثر كي لا أرى. أخرجتُ الأفعى لسانها المشطور. خرجت من شِقِّ الجدار تنسلُّ بنعومة يسبقُها لِسَانُهَا كأنه عصا الأعمى يتحسَّس مسلكها. تسلَّلتُ إلى السَّحارة الخشبية التي يتوسَّطها العُش. تسارع نبضي وانتفض جسدي. قطعْتُ أفعى الجدار طريقها مرورًا بين الفرخين المرتعشين. اختفى ذيلها وقتَ ظهر رأسها من الجانب الآخر للسَّحارة. مضت ترحفُ بنعومةٍ مُخَلَّفَةً بيت الصَّغيرين وراءها. اختفت في شقِّ الجدار المقابل. نهضتُ أدعكُ عينيَّ وأنا أحدِّقُ في موضع اختفاء الأفعى. أنقلُ بصري بين شقِّ الجدار والعُش وشقِّ الجدار المقابل. تأكدتُ من سلامة الصَّغيرين. رحتُ أركض خارج القفص. انتصبْتُ أرنو بعيدًا نحو الجنوب مُبْتَسِمًا. كانت الشَّمْسُ قد دنت للغروب. ما دامت أفعى الدَّارِ لا نخون، فإن حمام الدَّار..

عرزال

يغيبُ النُّور وراء نافذته. تتوارى الشَّمْسُ في مغربها. إنارة عُرفِته مُطفأة. فيروز لم تأكل شيئًا منذ ساعات. تسلَّل في خِيفَةٍ إلى الخزانة في الممر. حملَ في قبضته حفنة بذور. لفَّ الشَّالُ الفيروزي حول عُقْبِهِ ثم مضى في ظلمة المكان نحو الحمامة حذرًا. تجاوزَ المسافة المعتادة، اقترب إلى النَّافذة أكثر. لم تنتبه له فيروز وقد اختفى في

الغرفة غير المضاءة يتلعه الظلام. فتح النافذة بحذر. لم تتحرك. اكتفت تسحب رأسها إلى صدرها مترقبة. ضيق عينيه من شدة برد نفخ وجهه. غاصت رقبته في شاله الصوفي مترقبا. أصدرت هديلها مرتابة. اتسعت عيناه. حاكها: غروووغ. مرر قبضته المرتعشة ببطء. فزعت. طارت فيروز من دون أن تصفعه بجناحها كما تمنى. حال غروب الشمس دون ابتعادها. لاذت بسعفة النخلة المضطربة. نثر البذور في الهواء غاضبا. ضرب الدكة بقبضتيه. طيري يا جبانة! أخذ يخلق فيما وراء النافذة. لم تعد الزرقة تُلون البحر والسماء بعد غياب الشمس. كأنه ينتبه للأمر أول مرة. يمكنني أن أتصلح مع السماء والبحر على حالهما هذه! أطبق النافذة وأقفل نحو الحمام. سوف تعود. يجب أن تعود. وسوف تفقس البيضتان، وساعتها لن تتخلى عنهما أبدا. أفزع منظره في مرآة الحمام. وجهه باهت بين رمادي وأزرق. إنه البرد! أوجد لنفسه تبريرا. ألصق ذراعيه إلى جسده فيما يشبه وقفة عسكرية. نفخ صدره. غروووغ.

* * *



صباحٌ ثالث

47

«... ابتلعتُهُما الزُّرْقَة. لم يعد يراها. أخذ يُلوِّحُ بيديه. يصيحُ بهما: رَحَّال.. زينة! ثم أطبقَ أسنانه على طرفِ ثوبه وراح يركضُ كالمجنون!».

هذا الكابوسُ الأزرق يجيء بتفاصيل جديدة يوماً تلو آخر! طال مكوثه في السرير، مُغمض العينين يسترجع صوراً ومضت في منامه، لعله يخدعُ نومه يستدرج كابوسه يُبقيه مُدَّةً أطول. لكنه شأن كل شيء ليس لنا يدٌ في حدوثه أو تجنبه! أحداث يُقرَّرُها مجهولٌ في نومنا وحوادث تصنعها الصدفة في يقظتنا، وكلُّها أشياء بلا معنى. تنهَّد عِرْزال وقد فقدَ أمله في ساعة نومٍ إضافية. قِبلتُ بك يا كابوس وما قِبلتُ بي! التقطَ الهاتف وجفناه مُطبقان على حالهما منذ استيقاظه. ابهامه يتنقل بين الأرقام بحركة تلقائية. هو لا يدري أنه نسيَ الرقم، لو سُئِلَ يوماً عن رقم طليقته فإنه سيلوذ بالصمت. هو يتصل كلَّ صباح منذ أمس وفق ذاكرةٍ اصبعه التي تحفظ موضعَ الأرقام في مفاتيح الهاتف. انتظرَ المجيب في الناحية الأخرى. لا مُجيب. لم يابه كثيراً بعدم الرد على غير عادة. اعتدل جالساً على السرير. يُميلُ رأسه يميناً ويساراً، يلامسُ كتفيه بأذنيه، يُطَقِّطُ عظام رقبته. فتح عينيه ببطء على زُرْقَة النافذة. لم يعد اللون مزعجاً مثل أمس: ما دامت فيروز رابضة في الجوار. تنهَّد وهو يشاهدُ حمامته الأثيرة تحشرُ منقارها

في منقار أحد الفرخين، لعلهُ رَحَّال الصَّغِير في حياةٍ جديدة، كأن
أُمُّهُ تُجَبِّرُهُ على الأكل. جسدُ فيروز يهتزُّ بعُنفٍ تبدُّلُ كلِّ ما في وسعِها
لتودُّعِ سائلِ جوفِها في جوفِ الصَّغِير. الفرخُ يُحرِّكُ جناحيه الورديين
العاريين، إلا من زغبٍ أصفر، كأنما يَنازِعُ ويلقِظُ أنفاسه مُستفْرِغًا
روحه. نقلَ عِرزالِ نظره إلى الفرخ الآخر، لعلها زينة! يُحدِّقُ فيه وقتَ
ينتظرُ الفرخُ الجائع من أُمِّه التفاتة. رأسُهُ إلى الأعلى مُطَبِّقُ الجَفْنَيْنِ
صامتٌ مُتَأَهِّبٌ بلا حراك.

«اتكأ رجاءٍ على صُدفتي»

لا شيء في السَّقْفِ يُبَيِّرُ التفاتَ بصيرةٍ إليه طيلة الوقت. سقفُ
بصيرة، باطنُ السَّلَمِ القريب من رأسها، عتيقٌ تَقشَّرُ دِهَانُهُ منذُ ما لا
أدري، أحالَ الزمنُ بياضَهُ صُفْرَةً ضاربةً إلى البُني، يَنبِثُ بينه الرَّماديُّ
كاشِفًا عنه تساقطَ قشورِ الدَّهَانِ القديم. أحدُ شقوقِ السَّقْفِ يُشِبُّ الفم.
لو أَنَّهُ يَنطِقُ! شقٌّ آخر يُشِبُّ العين. أتراه يرى؟ يُخَيِّلُ لي أن لا أحد
يعرفُ العجوزَ بقدرِ ما يعرفها باطنُ السَّلَمِ، أو أن بصيرة لا تعرفُ
شيئًا في الحياة غير ما يهوسُ به إليها سَقْفُها الواطئ. من أين لها يقينها
بعودةِ حمامِ الدَّارِ ووفاء أفعالها؟! يُمَتِّعُ بصيرة! إذا كُنْتَ تسمعيني
ابصقي في القنطرة أرجوك. وجهها إلى أعلى لا يتحرَّكُ فيها شيء إلا
ارتفاع صدرها وانخفاضه تشهُقٌ وتزفُّ بانتظام. تشبُّكُ أصابع كَفِّها
المستندتين إلى جِحرها. أُنْثَى ساقِيّ تحتِي، أريح كَفِّي على رُكبتَيَّ
كما لو كنتُ في صلاة. أنظُرُ في وجه العجوز أتحرَّى دلالةً تنسِفُ
يقينَ والدي. دَسَسْتُ كَفِّي أسفل لحافها الصُّوفي أدلِّكُ ساقِها. إذن..

إِذْنُ لَوْ كُنْتَ حَقًّا لَا تَسْمَعِينَنِي، إِذَا كُنْتَ كَمَا يَدَّعِي أَبِي؛ عَمِيَاءَ صَمَاءَ
خَرَسَاءَ، أَرْجُوكَ يَمُّهُ بَصِيرَةً ابْصُرِي فِي الْقَصَصِ... لَمْ تُمَهِّلْنِي بَصِيرَةً
أَنْهِيَ جَمَلَتِي. خَخْخَرْف! طَاطَاطُ فِي خَبِيَّةٍ وَأَنَا أَحْمِلُ قِضْعَةَ بَصَاقِهَا
إِلَى رُكْنِ الْأَوَانِي أُغْسِلُهُ.

عرزال

لا يرى فيروز. اشرباً عُنُقَه، يُطالِعُ النَّافِذَةَ، يتأكَّد من غياب الحمامةِ الأمِّ. أزاحَ لحافه عن منتصف جسده. حثَّ خطوهُ نحو الصَّغِيرين. أسندَ كَفَّهُ إلى زجاج النَّافِذَةِ ينظرُ إليهما. سرت في ذراعِهِ رعشةٌ استقرت في مؤخرة رأسه. الطَّقْسُ ما زالَ بارِداً. أمعنَ النظرَ في الفرخين المرتعشين، بوَّدهُ لو يحملهُما إلى داخلِ غرفته يمنحهُما شيئاً من دفء، لكن الغرفة باردة أيضاً! استدار يمشي نحو المشجب في ركن الغرفة. حملَ شالَه الفيروزي. لَفَّهُ حَوْلَ عُنُقِهِ ودَسَّ الدُّبُوسَ يُبَيِّتُهُ قبل أن يمضي إلى مطبخِهِ يعدُّ قهوته.

«إِمْدَادُ الْوَهْمِ ذَخِيرَةُ الْيَأْسِ»

خرجتُ من المطبخَ أحملُ طبقًا فيه بيضتان مسلوقتان أزلتُ قشرهما ونشرتُ فوقهما ملحًا وفلفلًا أسود، وكوبَ حليبٍ منحهُ الزعفرانُ صُفرةً شهية. دأبني أغلي الحليبَ كلَّ صباح، بعد دقائق أمضيها مُقعياً في حوشِ الغنمِ إلى جوارِ قُطنة؛ معزتي البربرية البيضاء. أَسْمُرُ عن ساعديَّ أحلبُها برفق. ملمسُ ضرعِها ودِفْؤُهُ يمنحاني شعوراً غريباً. أنظرُ إلى عينيها الساهمتين بعيداً. أنا أُحبُّ قُطنة والكلُّ يعلم؛

الدَّجَاجَاتِ وَذَكَرَ الطَّاوُوسِ وَأَثْنَاهُ وَدَبَّكَ الْحَبَشِ. أَمْضِي مَعَهَا أَوْقَاتًا طَوِيلَةً أَحَدْنَهَا. لَا يَقْطَعُ حَدِيثِي إِلَّا صَوْتُ الْجَرَسِ الذَّهَبِيِّ الصَّغِيرِ الْمَعْقُودِ بِشَرِيطَةٍ زَرْقَاءَ فِي عُنُقِهَا وَصَوْتُ بَصِيرَةٍ بَيْنَ دَقِيقَةٍ وَأُخْرَى. خَخَخ. أَصَمْتُ ثَوَانٍ إِلَى أَنْ: نَف! أَسْتَأْنِفُ بَعْدَهَا حَدِيثِي مَعَ قُطْنَةٍ يُقَاطِعُنِي صَوْتُ يَجِيءُ مِنْ وَرَائِي. تُحِبُّ الْمَعْزَةَ يَا تَيْس؟! إِنَّا كُنْفِي وَالِدِي كُلَّمَا لَمَحَنِي أَتَحَدَّثُ مَعَهَا فِي حَوْشِ الْغَنَمِ. أَرَتَابُ مِنْ نَظَرَاتِهِ الْفَاحِصَةِ لِلْمَعْزَةِ. يَضْحَكُ مُرَدَّدًا مِثْلًا أَكْرَهُهُ: «مَعْزَةُ الدَّارِ تُحِبُّ التَّيْسَ الْغَرِيبَ!». لَمْ أَفْهَ بِكَلِمَةٍ. اكْتَفَيْتُ أَفْكَرْتُ بِالْغَرِيبِ، وَالْغَرِيبَ.. أَنَّنِي شَعَرْتُ بِالْغَيْرَةِ. وَالِدِي لَا يُحِبُّ قُطْنَةَ، حَاولْ حَلْبَهَا مَرَارًا، لَكِنَهَا لَمْ تَمْنَحْهُ حَلِيبًا قَطَّ كَمَا تَفْعَلُ مَعِي عَنْ طِيبِ خَاطِرٍ.

مَضَيْتُ إِلَى أَسْفَلِ السَّلَمِ حَامِلًا كُوبَ الْحَلِيبِ الْمَغْلِيِّ الْأَصْفَرِ فِي يَدٍ، وَفِي يَدِي الْأُخْرَى طَبَقُ الْبَيْضَتَيْنِ. أَنَا أَكْرَهُ سَلْقَ الْبَيْضِ أَوْ أَكَلَهُ. أَتَخِيلُ الْفَرْخَ مَحْشُورًا فِي الْبَيْضَةِ، مُسْتَقَرًّا فِي قَعْرِ الْقَدَرِ الْمَلِئَةِ بِالْمَاءِ. أَكَادُ أَسْمَعُ صِيحَاتِ النَجْدَةِ كُلَّمَا أَزْدَادَ الْمَاءُ سَخُونَةً، يَهْمُدُ الصَّوْتُ عِنْدَ دَرَجَةِ الْغَلِيَانِ، وَلَكِنْ.. يَنْبَغِي أَنْ تَعِيشَ بَصِيرَةً، وَلَكِي تَعِيشَ الْعَجُوزُ؛ يَنْبَغِي أَنْ تَأْكُلَ. بَصِيرَةً يَحِبُّ أَنْ تَعِيشَ إِلَى الْأَبَدِ، وَإِلَّا فَسَوْفَ يَسْتَحُودُ أَزْرَقٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. قَرَفَصْتُ عَلَى بَسَاطِ الْحَصِيرِ مُقَابِلَ الْعَجُوزِ مِثْلَ كُلِّ صَبَاحٍ. أُمَسَكْتُ مَوْخِرَةَ رَأْسِهَا وَأَقْرَبْتُ كُوبَ الْحَلِيبِ مِنْ شَفَتَيْهَا أَسْقِيهَا. أَهْرَسُ الْبَيْضَتَيْنِ بَيْنَ أَصَابِعِي الصَّغِيرَةِ أَمْرِجُ بِيَاضًا بِصَفَارٍ، أَصْنَعُ مَا يُشَبِّهُ الْهَرِيسَةَ. أَكُوُّرُ لَقِيْمَاتٍ أَدُسُّهَا بَيْنَ شَفَتَيْ الْعَجُوزِ الْيَابِسَتَيْنِ. أَطَالِعُ وَجْهَهَا النَّازِلَ إِلَى الْأَعْلَى أَبَدًا. تَرْتَسِّمُ عَلَى وَجْهِي عِلَامَاتٍ رَضِي كُلَّمَا فَتَحَتْ فَمَهَا مَمْتَنَّةً أَنْ أَلْقَمَهَا الْمَزِيدَ.

أثرها تعرفني كما أعرفها؟ أصمتُ أقلبُ سؤالي في رأسي. أثري أعرفها كما أظن؟ أفرغُ من إطعامها ساهماً أتحرّى أثر سؤالي على وجهها. لا أثر. أنظر إلى الشّرخ في سقفها الواطئ. أنت وحدك تعرف كل شيء! لا تلبثُ بصيرة طويلاً بعدما أظُرّها. يمتقع وجهها. تطبقُ جفنيها عاقدةً حاجبها قبل أن تنتشر رائحة كريهة في موضعها. أمضي نحو المطبخ أحملُ الكوب والطبق الفارغين. أشمّر عن ساعدي عائدًا إلى أسفل السّلم، مُلقياً خِرقة على كتفي حاملاً دلو ماء. كثيرة هي الأشياء التي أقوم بها على مضض، أُجبرني على فعلها؛ على رأسها سلق البيض والتنظيف أسفل بصيرة وإفراغ قصعتها من البصاق، وانتظار زينة ورخال. أنا لا أملكُ خياراتٍ أخرى. لا أعرفُ شيئاً آخر عدا أن أذعنُ لفعل ما لا أحب من أجل من أحب، وأنا أحبُ بصيرة، وصرتُ أحبّها أكثر، بل صارت العجوز موجودةً أكثر مُذ رحلتُ أمي. أشتاقُ أمي.. أحبّها كثيراً. أحبُ غناءها فجراً. كانت مثلي تُحبُ الحمامَ وهديله. دائماً ما تُردّدُ أغنية «نوح الحمامة»، وكُلّما سألتها عن سبب نوح الحمامة تُجيبني: اسألها!

أرتقي دَرَجَاتِ السّلم ركضاً. أبطئُ خُطواتي في السّطح أستشعر النسيمات الباردة على وجهي. أنمهلُ في السّير على الأرض المُغبرة مُنصِتاً إلى هديل الحمام فجراً. يكفُ الحمامُ عن هديه وجلاً فور ما أدرك ساحة الأقفاص. ساحةٌ مثل بهو البيت غير المسقوف تحيطه العُرف من كلّ جانب، ساحةُ السّطح مُربّعة تحيطها أقفاصُ في جوانب ثلاثة. أجلسُ على السّحارة الخشبية منتصف السّاحة في ظلمة الفجر، مثل تمثالٍ لا تصدر عنه نامة. يطمئنُ الحمامُ بعد هدأني. يعودُ

يناجي بعضه بعضًا على استحياء. هديلٌ يجزُّ هديلًا، حتى يصيرُ مثل أنشودةٍ جماعيةٍ تتخلَّلُها زقزقة زراير ما قبل الشُّروق. أمكثُ مُطْبِقًا جفنيَّ مأخوذًا بسحر الأصوات كأنها تعتمَلُ في أعماقي. أكون ممتلئًا بالهديلِ غائبًا فيه، أتنفَّسه، أستشعرُ ديبه على جسدي تنميلًا في باطن قدَمي الحافيتين فوق الدَّرَقِ اليابس، مثل نملٍ يتسلَّقُ ساقِي، ينتشرُ مثل فراشاتٍ في صدري قبل أن يستقرَّ في رأسي مُخلِّفًا إحساسًا بلذَّةٍ لا أعرفها إلا مع قُطنة. أفتحُ عينيَّ مع بزوغ الشَّمسِ. أرفعُ رأسي عاليًا. عشرات الحمامات تطوفُ في السَّماء حول السَّطح. أصرفُ الفكرة تمامًا عن سؤال الحمام؛ لماذا تنوح؟

عِرزال

خرج من مطبخه يُحيطُ كوبُ القهوة الساخنة بكفيه. استدار في الممرِّ ليلجَ غُرفته بظهره. نظر إلى انعكاس النافذة في المرأة عن يمينه. لم تعد فيروز! ينقبض صدره كما في كُلِّ مرَّةٍ تغيب. عساها تعود سريعًا. استدار بصدريه إلى النافذة يمضي إليها. فتَحها ينظرُ بعيدًا، يُمشطُ الزُّرقة البغيضة بعينه. لا أثر. هو ليس متأكدًا من كونها صارت من أهل الدَّار بعد. الصَّغيران يرتعشان بردًا. يرتعش هو فزعًا. هل تتخلَّى عنهما الجبانة؟! فيروز لا تفعل، فيروز طارت وسوف تعود مثل كلِّ مرَّة. وضع كوبَ قهوته على الطاولة إلى جوار المقعد. اختفى في المطبخ قبل أن يعود إلى غُرفته يدخلُها بظهره حاملاً رغيف خبز بين يديه. نظرَ في المرأة. وجدَ فيروز على الدَّكة. ابتسم مُطمئنًا بهزُّ رأسه. فيروز حلوة. فيروز تُحبُّ صغيريها. كان يُفتَّت الرِّغيف ويجمعُ الفتات

في كفه. غرووغ.. غرووغ.. اطمئني. اقترب من نافذته المفتوحة
 مُحترسًا. استدار ببطءٍ يواجهها بصدرة. كان مؤمنًا بأنها سوف تحمي
 صغيرها وقد خرجا من البيضتين وتعرّفت إليهما وألفتهما. مدّ كفه
 مبسوطةً بفُتات الخُبز. طارت فيروز. بهت الكهل. تعالي! تعالي يا
 مجنونة! كان يُمنّي نفسه بأن تُدافع عن صغيرها وتصفع كفه بجناحيها!
 نثر قطع الخُبز الصّغيرة على الدّكة غاضبًا. طيري يا جبانة! تف!
 «كُل الأُلوانِ أزرق»

عزفت عن الكلام لأيام. صارَ لساني أقلامًا خشبيّةً ملوّنة. أمضي
 ساعاتٍ في سطح الدّار، أفرشُ أوراقِي على الأرضِ المُغبرة والذّرْقِ
 مِن حولي، أنظرُ إلى السّماءِ جنوبًا، أرسمُ حمامتين تمضيان تحليقًا
 صوبَ المدينة. أحرصُ على تلوينِ جِجليهما؛ أحدهما أزرق، والآخر
 وردي. كنتُ أرسمُ ما أرومُ إليه بدافعِ أجهله. أرسمُ وألّون من دون
 توقّف. أنساني لساعاتٍ وقد تكدّست الرّسومات على الأرضِ أمامي،
 أنقلُ بصري بينها وبين السّماءِ الخالية. يرتسمُ ظلُّ والدي مُنحنيًا على
 أوراقِي. أرفعُ رأسي أنظرُ إليه مُمتقع الوجه مُقَطَّبَ الجبين. يُطلقُ زفرةً
 طويلةً يهزُّ رأسه. أنتَ تهدرُ وقتك!

عرزال

جلسَ على ركبتيه أمام النافذة المفتوحة واهنًا مكسورًا. يكادُ
 أنفه يلامس الفرخين على الدّكة. يُحدّقُ فيهما. يُمسّدُ على ظهريهما.
 مُطمئنان لا تعرفان الخوف يا صغيري.. لماذا تخاف فيروز؟ ها؟
 لأنّها وحيدة؟ أين زوجها؟! راح يفكر. أثراه سافر إلى جزيرة؟

اضطرب الكهل وقتَ باغته السؤال الأخير. خيرٌ لكما أن أبأكما ليس موجوداً. نظرَ إلى نثارِ الخبزِ على الدُّكَّة. يلتقطُ قطعة بين إبهاميه وسبَّابته. يبلِّلُها بين شفتيه. قرَّبَ اصبعيه من منقار أحدهما. لم يتوان الصغيرُ يفتح منقاره ويحرك لحمتي جناحيه بلهفة. أنتَ أصغر من أن تعرفَ الخوف، أنا عرفتُ الخوف مبكراً، عرفته في السَّماء، عرفته في البحر، عرفته في والدي، لكن أنت.. دسَّ عِرزال نتفة الخبزِ في جوف الفرخ الذي أخذ يُحرِّكُ رأسه يحاول ابتلاعها، لكنه لفظ نتفة الخبز. صغيرٌ على التهام طعامه لو حدّه. تَلَفَّت عِرزال يتأكد من غياب فيروز. أمعن النظر حوله كأنما يخشى أن يتنبّه أحدٌ لفعلِهِ. التقط نتفة خبزٍ أخرى. بلَّلها بين لسانه وشفتيه حتى أعادها إلى ما يُشبه العجينة. دسَّها في منقار الصَّغير. أسندَ كَفَّهُ برفقٍ على ظهر الفرخ. قرَّب وجهه أكثر. أطبق شفتيه على المنقار وراح ينفُخُ بلينٍ في حين يتنفّض الفرخُ تحت كَفِّهِ. راقبَ عِرزال نتيجة الفعل جالساً على ركبتيه ممسِكاً بإفريز النافذة بيديه. لم يلفظ الفرخُ طعامه. تفرقت دموعُ الكهل في عينيه. كرَّرَ الفعلَ مع الفرخ الآخر وهو ينتفض بُكاءً من غير صوت. يهتزُّ جسده بعُنف ويختنق بعبراته وهو ينفُخُ في جوفِ فرخ الحمام حتى ابتلع نتفة الخبز المبلولة بريقه. نجح في إطعامهما. أخذ يُنقلُّ بصره بين الاثنين وشفته السفلى مُتدلّية ترتعش. أسندَ قَدَمَيْهِ إلى الجدار أسفل النافذة كأنما يدفعه. انسحب بمؤخرته على الأرضِ إلى الوراء. ضمَّ ساقَيْهِ إلى صدرِهِ يُعَمِّمُ وسط نشيجِهِ. زينة.. رَحَّال. فتح عينيه على وَسْعِهِمَا. لمعت في رأسِهِ فكرةٌ أفضى بها ذِكْرُ الاسمين. انتزع دُبُوس الشَّالِ من أسفلِ عُنُقِهِ والتفت إلى خزانة الممر. صارَ يحبو

مخافة أن يُفزعَ فيروز في حال عودتها. وقفَ يفتحُ باب الخزانة. يُمشطُ رفوفها بعينيه؛ ثياب نسائية بالية، صورٌ بالأسود والأبيض لامرأة مفروقة الشعر بجديلتين طويلتين، كيسٌ شبكيّ يحوي دزنتين من كريات زجاجية، نبيطة وبندقية صيد هوائية وجرس ذهبي صغير معقودٌ بشريطة زرقاء، قطعتا دَيْرَم ملفوفتان بمنديل أزرق، قماطٌ وردي، قماطٌ سماوي الزرقة، مصاصتي أطفال وقصعة خزفية وجريدةٌ مُصفرةٌ أوراقها، وصورة عائلية لا يجدُ نفسه فيها. جلسَ على رُكبتيه. عبثَ في الأدراج السفلية قبل أن يجدَ بُغيته؛ غلبة حلويات قديمة صدئة، أخرج منها بكرة خيوطٍ صوفيّة. اقتطع الكهلُ جزءاً من الخيط، عقدَ طرفه في منتصف دُبوسٍ شالِه قبل أن يحبو نحو دَكَّة النافذة. حملَ أحدَ الفرخين في كفه يتحقّق من جنسه.

«الأسماءُ عتباتُ الخلود»

كنتُ قد أوشكتُ أن أجلسَ على السحّارة الخشبية في منتصفِ ساحةِ الأفافس، لكنني تنبّهتُ إلى وقوفِ والدي في زاوية السطح، يبدو منهمكاً في شيء، بين الجدار ولوح خشبيّ يصُدُّ الرّيح. تقدّمتُ نحوه يدفعني فضول. حدّقتُ في والدي الذي يحملُ في قبضته فرخاً صغيراً، يرفعُ كفه الأخرى مُمسِكاً بطرفِ خيطٍ بين سبّابته ووسطاه، تتدلّى في آخر الخيطِ إبرةٌ معقودةٌ في منتصفها. لم يلتفتَ إليّ. اكتفى يُنبّهني همساً. لا تتحرّك! وقفتُ ساكِناً أراقبُ تأرجحَ الإبرة مثل بندول الساعة. سألتُه ماذا تفعل؟ لم يُجب. راحت الإبرةُ تتأرجح بحركةٍ مستقيمة بين رأس الطير وذيله. هزّ والدي رأسه. ذكّر! التفتَ إليّ.

ماذا نُسَمِّيه؟ هي المَرْءَةُ الأولى التي يطلبُ فيها مِنِّي أن أُطْلِقَ اسْمًا على إحدى الحمامات. لم أَدَّخِرْ وقتًا كأنما انتظرتُ سؤاله منذ زمن. رَحَّال! مَطَّ شَفْتَيْهِ مُسْتَحْسِنًا الاسم. تدارك. لا تُصَدِّقْ هذه الخرافات، أنا أُنْسَلَى. أعادَ الفرخَ إلى القفص. حملَ الفرخَ الآخرَ يُكْرِّرُ اللعبة ذاتها. صارت الإبرةُ تتحرَّكُ فوقَ جسدِ الفرخِ بشكلٍ دائري. أفلتَ ضحكةً من أنفِهِ. أنثى! التفتَ إليَّ ينتظرُ مني تسميةً. عقدتُ حاجبيَّ أَفَكَّر. ابتسمتُ وأنا أُرطَّبُ شَفَتَيْ كَأَنما أستطعمُ حلاوة الاسم في فمي قبل أن أقول...
عرزال

زينة.. زينة! ردَّدَ الكهلُ وهو ينشج. يمسحُ دموعه بظهرِ كَفِّهِ والصَّغِيرَةُ في يده الأخرى ما تزال. أعادَ غرَزَ الدُّبُوسِ في شالِه الفيروزي مُسْتَسْلِمًا. وضع الصَّغِيرَةُ إلى جوار أخيها برفق بعدما أجرى اختبارَه عليهما. أطبقَ زجاجَ النافذة. مضى إلى مرآةِ الحَمَّام وهو يُفَكِّرُ، هو لم يرفض أن يطلقَ الاسمَ على أخوي زينة ورحَّال عندما كان صغيرًا عبثًا. سوف يعودان في حياةٍ أخرى، يربضان على دَكَّةٍ نافذتِه بعد سنوات طويلة. تسمَّرُ أمامَ مرآتِه في الحَمَّام. أفزعته صورته على وجهها وهو يُحدِّقُ فيها. من أنت؟ ها؟ أطلَّ النظرَ في انعكاسِه. بشرته شاحبةٌ داكنةٌ وهالات سوداء تحيط بعينه الحمراءوين بلونِ الدَّم، وشعيرات رماديةٌ طالت في ذقنِه. رفعَ كَتِفَيْهِ نافخًا صدرَه عاقِدًا حاجبيه. أطبقَ جفنيه، ثُمَّ باعدَ بين ذراعيه يضربُ بهما الهواء كأنه يُحَلِّقُ مُبْتَسِمًا. صارَ يذرُعُ الحَمَّام يدورُ مُغْمِضًا عينيه. حمامُ الدَّارِ لا يغيب.. لا يغيبُ يا أزرَق.. غروووغ!



صباح رابع

«..نهض عن الأرض. وقفت على أطراف أصابعه ينظر بعيداً. ابتلعتهما الزرقة. لم يعد يراها. أخذ يلوح بيديه. يصبح بهما: رَحَال.. زينة! ثم أطبق أسنانه على طرف ثوبه وراح يركض كالمجنون!».

جاء كابوسه صامتاً إلا من نداءاته للصغيرين، وصوت نغم قديم يراوح بين هديل وأغنية تتردد في ردهات البيت القديم. شخّصت عيناه ينظر إلى سقف غرفته. أمي! حلق في سقفيه ذي اللون الباهت والدهان المتقشر. اعتدل جالساً في سريره. راح يحكّ صلعتة ويتلفت ساهماً في زوايا الغرفة، كأنما أصواتاً قديمة تتردد في المكان.

«لوعةً بهيّة»

أحب أن تهدل الحمامة الأم أكثر من أي حمامة أخرى. هي لا تكف هديلها حتى وقت تصمت حمامات السطح ليلاً. تهدل بنغم شجيّ مُغاير. لا تُغمض عينيها، تحت سماءٍ مُتوهجة النجوم في غياب القمر، ترنو صوب الجنوب ساكنة. صرّت أحاكي هديلها، أُجيده لكثرة ما أمضيت الليالي أنصت إليه. تنبّهت ذات مساءً إلى أن الحمامة الأم وحيدة، وحده عارضة إلى حين عودة صغارها، لكن، لم أسألني يوماً أين هو ذكرها. كان في الجوار دائماً. أنذره لا يطيل غياباً إلا أنه لم يعد. كنت أحب في زوج الحمام حسن عشرته. لا يتخلى واحدهما

عن الآخر منذ ارتباطهما ما دام كلاهما على قيد الحياة. يتشاركان بناء العش، يتناوبان الرُّقودَ على البيض وجلب الطعام وتغذية الأفراخ. يكادُ من لا يعرف الحمامَ مثلي لا يُميّز بين ذكرٍ وأنثى. كلاهما يقومُ بجزءٍ من الدَّورِ ذاته إخلاصًا لحياةِ صغارهما. أنا أُحبُّ الحَمَامَ لأنه مُخلِصٌ لعائلته، وفيّ لِداره. لكن غياب زوج الحمامة الأمِّ ومن ثمَّ غياب صغارها بعد أيامٍ، في رحلةٍ بدت بلا عودة، نَسَفَ كُلَّ إيماني بطبيعة الحمام.

عرزال

أخذ يترنم بشدوٍ قديم في ذاكرته وهو ينظرُ إلى دَكَّةِ النافذة. فيروز تُطعمُ صَغِيرَها. هبطَ من سريره يحبو ببطء على الأرض الباردة يمضي نحو المطبخ. ينظرُ من وراء كَتِفِهِ إلى الثلاثة وهو يتسم. نهض فور ما أدرك الممرَّ خارج الغرفة. استدار يطلُّ بنصف وجهه. يُطيل النظر إلى فيروز المنشغلة عنايةً بصَغِيرَها. الأمومة أمرٌ عظيم، لكن! لماذا تخاف الأمهات؟ أنا أكره الخوف. هو لا يتذكّر من أمّه إلا صوتها؛ غناءً أو خوفًا. أطبق جفنيه بشدّةٍ يحاول عبثًا أن يتذكّر شيئًا آخر؛ ملامحها، ثيابها أو رائحتها. لا شيء غير الغناء والخوف منذ أمس. يولي ظهره لغرفته ونافذة فيروز. يمضي نحو المطبخ يُجهّزُ قهوة كلِّ يوم.

«الغناء زاد الرُّوح في الأيام الحزينة»

وحدها الحمامة الأمّ تخطط الليل بالنهار هديلاً. رابضة تولى

صدرها شطرَ الجنوب وجهة الغياب والإياب، إلا أن آثًا من الغائبين لم يعد. نحلَّ جسدها مُذ غاب زوجها وبقية الصَّغار الذين أطلقهم والدي في الصَّحراء للمرَّة اللا أدري. مالت رقبتهَا، تهدَّلَ جفناها على مُتصَفِّ عينيها. صارت ريشًا على عظمٍ واهن، وأنا مُتصرفٌ عن كُلِّ التحوُّلات الطارئة عليها، غائبٌ في سحر الهديل، خدرٌ يتسلَّلُ إلى داخلي من مساماتِ جلدي. أنظرُ إلى الحمامة الأم ملتوية الرقبة بشفقة. أخشى أن يُصيبها بورقية، صرَّع الحمام، حُزنًا على صغيريها. أطمئن نفسي بأن لو أصابها المرض لانتبه والدي، وعزَّضها للشمس لثلاثة أيام بعد نتف ريش رقبتهَا ودهنه بالتشوق. إغالي بالتفكير كاد أن يُفقدني صوابي، ماذا لو استمرَّ المرض؟ أعرفُ والدي لن يتوانى عن فصل رأسها عن جسدها! أدتُ ظهري أمشي على أطراف أصابعي خلسة نحو السَّلَم نزولًا، خشية أن تقطع هديلها الشَّجي.

أطوِّق رأس قُطنة بين ذراعي في حَوْش الغنم أهمسُ لها. الحمامة الأم لا تكفُّ هديلها. نحلَّ جسدها أصابها المرض، لكن الهديل كُلِّما ساءت حالها صار أكثر سحرًا. الحمامة الأم تُتأسى بالغناء عزَّال! قالت قُطنة. كاد قلبي يفرُّ من بين أضلعي وقت بادرنِي الصَّوت. أحكمتُ شدَّ ذراعي حول رأسها كأنما أحاول خنقها لئلا يُبادرنِي الصَّوت ثانية. نفضتُ رأسي أنبُهني. المعزة لا تنطق! أفلتُ رأسها وقت ملأت الحَوْش بِثغائها. فرَّت هاربة تلوذُّ بالواح الصفيح والخشب. لم تبردُ الكلمات إلا مِنِّي! رحْتُ أُنطق ما سمعت ولكن.. أن يجيء الصَّوت مِنِّي يعني أن بصيرة هي الأخرى لم.

جفّ ريفي، وكانت بئرنا مالحة يومها.

عرزال

خرج من المطبخ بكوب القهوة يسير على أطراف أصابعه مقللاً إلى غرفته. فيروز ليست هنا. طلّ على زينة ورخال الجديدين في عُشّ الذّرق والرّيش والأسلاك والعيدان الخشبية. صارا أكبر حجماً وهما في عمر أسبوعٍ يُغَطِّيهِمَا الزَّغَبُ وقد استحالَ لونه دَاكِئًا. مُكْتَئِزَانِ يبدوان في صِحَّةٍ جيّدة. جلسَ على كُرْسِيَّهِ يُحْمِلِقُ في امتداد الزُّرْقَةِ وراء النافذة. يمسحُ السَّمَاءَ بِعَيْنِيهِ نزولاً إلى البحرِ مضطربِ الموج. عيناه مفتوحتان على البعيد، لكنه ينظرُ إلى ما يومضُ في رأسه؛ سفينة عملاقة توليه مؤخرتها تمضي مُبْجِرَةً عند تلاقي الزُّرْقَتَيْنِ. ردّد ما جاء في أغنية قديمة: «عبّروا مضنوني، يا أهل المراكب، عبّروا مضنوني». تنهّد. الأزرق، منذ الأزل، هو لون الغياب والفقد!

«فتقّ في ثوبٍ حقيقةٍ ورُقعةً كَذِب»

مسحتُ على ظهر قُطنة المفروق. أتوسّل سماعَ صوتها ثانيةً بعد يومين. تخيلي قُطنة نتفٍ والدي ريش رقيتها، بقي الشّعيرُ على حاله في قفص الحمامة الأم! لم تمسّ حبّة واحدة، لكنّها ما زالت تهْدِل! نظرت المعزّة إلى عينيّ وهي تلوكُ البرسيمَ بغير اهتمام. صدّقيني قُطنة! هي حزينة، ولهذا هي دائماً تُغني! المعزّة لم تزل تُبَحِلِقُ فيّ بغير اكتراث، لا تنفكُ تُحرّكُ فكّها الأعوجَ برتابة فيما يُصدرُ جرسها رنينًا باهتًا. هربتُ بنظري عن نظرتها مُطَرِّقًا. أمسكتُ بعودِ برسيمِ يابس.

رحتُ أرسمُ خطوطاً في التراب بين قوائم المعزة. هي حزينَةٌ بسبب هجرِ إخوتكِ عِرزال! التفثُ إلى قُطنة مُتَفَضِّلاً. ماذا قُلْتَ!؟ مَنْ هي!؟ المعزةُ تنظرُ إليَّ ببلاهة ولسانها متدلٌّ خارج فكَّيها. اغرورقت عيناَيَّ. ليس لديَّ إخوة. مسحْتُ دمعاً علقَ في محجريَّ. أنا لستُ حمامة كي تصير الحمام المِسافرةِ إختوتي! لسانها الوردِيُّ لم يزل مُتدلِّياً. أخرجتُ لِساني. قَرَبْتُ وجهي إلى وجهها بحذر. أغمضتُ عينيَّ. ريقكُ عذبٌ قُطنة! رحتُ أضحكُ في خجل. أولتني المعزةُ مؤخرتها مُتَبَعِدَةً عني وجَرَسُها الذهبيُّ الصَّغيرُ يُصدرُ رنينه. رحتُ أحدقُ في أسفل ذيلها المنتصب شارِدِ الذَّهن.

عِرزال

تنبَّه من شروده وقتَ حطَّت فيروز على دَكَّة النافذة. ابتسم. فيروز! قَطَّبَ حاجبيه يتفكَّر في الاسم وقد لفظه لأول مرَّة بصوت مسموع. رفر الاسم في أذنيه. فيروز فيروز فيروز. كَرَّر الاسم وهو يجترُّ صُورًا قديمة. هزَّ رأسه يطردُ الصُّور التي صاحبت لفظه الاسم. تسارع وجيبُ قلبه. حكَّ صلعتُه مُغمِغِماً. تسلَّل مثل لصٍّ إلى خزانة الممر. فتح بابها الخشبي. نظرَ إلى باطن الباب. جديلتان، واجدَتُهُما بطولِ ذراع، معقودٌ آخرهما بشريطتين فيروزيَّتين. لا يتذكَّر متى قام بتعليقِهما. أسندَ كَفَّيه إلى خشبِ الباب. قَرَّب وجهه يتشمَّم الجديلتين في نَفْسٍ عميق. لا! صرخَ مُطَلِّقاً لاءً من قاعِ جوفه. أطبق باب خزانة الممرِّ بقوة. لم يجد فيروز حينما دخل غرفته بصدِّره باهتًا ساهِمًا يتصبَّب العرقُ من جسده بغزارةٍ رغم البردِ في غرفته. جلسَ على

السَّرِيرِ خَائِرِ الْقَوَى يُحَلِّقُ فِي الْأَرْضِ. أَغْمَضَ جَفْنَيْهِ بِشُدَّةٍ كَأَنَّمَا
شَاهَدَ فِي الْأَرْضِ مَا يَوْجِعُهُ. ارْتَمَى بِظَهْرِهِ عَلَى سَرِيرِهِ وَأَطَالَ النَّظَرَ
فِي السَّقْفِ. لِمَاذَا أَنْتَ صَامِتٌ هَكَذَا؟ هَا؟ أَنْتَ تَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ..
كُلَّ شَيْءٍ. أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ.

«اسْمُهَا فَيَرُوز»

بِالْكَادِ فَتَحْتُ عَيْنَيَّ عَلَى مُتَتَصِفِهِمَا. كَانَ وَالِدِي قَدْ أَطْلَقَ
حَمَامَاتِهِ الْأَرْبَعَ لِلْمَرَّةِ اللَّائِي أُدْرِي. كَثَافَةُ الْغُبَارِ أَسْفَلَ الشَّحْبِ أَحَالَتِ
السَّمَاءَ فَوْقَ سَطْحِ الْبَيْتِ حُمْرَاءَ كَامِدَةٍ. الْأَرْضُ وَالْأَقْفَاصُ وَكُلُّ
شَيْءٍ مُغَطًى بِالتَّرَابِ وَالطِّينِ كَأَنَّمَا زَلْزَالَ مَرٌّ مِنْ هُنَا قَبْلَ سَوِيْعَاتٍ.
هُوَ مَوْسِمُ السَّرَّايَاتِ غَيْرِ مَفْهُومِ الْمَزَاجِ. تَهْبُّ رِيحُ الْكُؤُسِ مِنَ
الْجَنُوبِ مَشْحُونَةً بِالْأُتْرَبَةِ. لَا تَتَوَانَى الرِّيحُ تُغَيِّرُ اتِّجَاهَهَا دَوْرَانًا مَعَ
عَقَارِبِ السَّاعَةِ، رِيحٌ غَرِيبَةٌ عَاصِفَةٌ مَجْنُونَةٌ لَا تَدُومُ، تَنْسَحِبُ تُغْرِي
رِيحُ الشَّمَالِ تَعْصِفُ بِالْمَكَانِ تَهْزُ قِصَبَاتِ اللَّاقِطَاتِ الْهَوَائِيَّةِ وَتَنْزَعُ
الْمَلَابِسَ مِنْ جِبَالِ الْغَسِيلِ. وَمِيضٌ بَرَقَ يَتْبَعُهُ هَزِيمٌ. زَخَّاتُ مَطَرٍ
كَثِيفَةٌ تَوْشِكُ أَنْ تَغْسَلَ كُلَّ شَيْءٍ سُرْعَانِ مَا تَنْقَطِعُ. شُحْبُ غُبَارٍ
تُدَاهِمُ الْمَدِينَةَ. يَعَاوِدُ الْمَطَرُ نَزْوِلَهُ رِذَاذًا يُدْرِكُ الْأَرْضَ طِينًا لَزَجًا. هُوَ
يَوْمٌ صَعِبٌ بِشَهَادَةِ مِلْحِ الْبَثْرِ. مَشَيْتُ عَلَى أَرْضِ السَّطْحِ الزَّلْزَلَةِ بِحَذَرٍ.
لَاذَتِ الْحَمَامَاتُ بِأَقْفَاصِهَا. كَيْفَ لِلْحَمَامِ الْمُسَافِرِ أَنْ يَسْتَدَلَّ طَرِيقَهُ
إِلَى هُنَا؟! كُنْتُ أَسْأَلُنِي. حَثْتُ خَطْوِي إِلَى قَفْصِي الْأَثِيرِ. اكْتَمَلَ
نَمْوُ الْفَرَخَيْنِ الْجَدِيدَيْنِ. أَبْقَيْتُ عَلَى مَسَافَةٍ بَيْنِي وَبَيْنَهُمَا. سَوْفَ
أَنْظُرُ فِي شَأْنِهِمَا، أَسْمِيَهُمَا، بَعْدَ أُوبَةِ زِينَةٍ وَرَحَالٍ. أَزَحْتُ غُرَّتِي عَنْ

هنيئاً أتلفتُ أبحثُ عن أمّهما المكلومة بنوبات الفقد. وجدتُ فوق
 السّحّارات الخشبية المليئة بالدّرق الحمامات الأربع؛ غادي ورايحة
 وسفّار وعوّاد، ثابتات ملتصقات ببعضها البعض. ألفتُ زفيراً طويلاً.
 ابتسمتُ وقد فاجأتني عودتها قبل عصف الرّيح. كدتُ أظأ ماذا؟
 أطرقتُ أنظرُ إلى جسمٍ بين قدّمي الصّغيرتين. شاهدتُ في الأرض
 ما أوجعني. الحمامة الأمُ كأنما تحتضنُ الأرض مفتوحة الجناحين
 مُطبّقة جفنيها يكسوها الغبار. أقيمتُ إلى جوارها أنظرُ إلى عنقها
 متوف الرّيش وقد فُصل عن جسدها. قُتلتُ فيروز. قلتُ لنفسي وأنا
 أتعرف الموت لأوّل مرّة وقت أطلّقتُ الاسم أوّل مرّة. لا أدري لماذا
 أسميتها فيروز بعد نفوقها. كأنما أردتُ لشيءٍ منها يتمسّك بالحياة،
 لم أكن أفقه سبباً إزاء التسمية غير حاجتي لأن أبقّيها هنا، في هذا
 الرأس، وكيف لشيءٍ أن يظلّ خالداً من دون اسم! لم يأبه والذي
 كثيراً لفقد الحمامة الأم. مردّ كلّ شيءٍ إلى موت. كان يقول. لا
 يُلطّف حقيقةً ولا يكفّ يُذكّرُ بها، وكان الدّماء لم تُلطّخ يديه قط.

عرزال

فتح عينيه يُحرّكُ بؤبؤيه على سقفيه باضطراب. نهض الكهل
 مُعتدلاً في جلسته فوق السّرير. رأسه إلى الأعلى لا يزال، يُحلقُ
 في شرخ السّقف. بماذا كنت تهمسُ؟! أنت الشاهدُ على كلّ شيء.
 استفزّه صمتُ السّقف، وصوتٌ شجيّ في رأسه يتردّد. نهضَ يمضي
 نحو ممرّ الخزانة. فتح بابها ولم يلتفت إلى الجديلتين المعلّقتين إلى
 باطن باب الخزانة الخشبي. يحاول أن ينظرَ إليهما ويصدّه شيءٌ في

نفسه. رأسه يرتجف. يدس كفه في كيس البذور. يستدير ماضياً في
السَّيرِ إلى الحمَّام. يواجه انعكاسه في المرآة. شعره منكوشٌ حوا
صلعته منذ استيقاظه. بسطَ كفه أمام وجهه كاشفاً عن حبوب الشعير
راحَ يتشمَّمها بنفسٍ عميق. سرت رعدة في جسده. نظرَ إلى صورته
في المرآة يتحقَّق من كونه هو. العروق الحمراء تنتشر في عينا
الشَّهلاوين. بدا لنفسه شخصاً آخر. انحنى على كفه المبسوطة ثانياً
يلتهم الشعير. يعاود النظر في المرآة وهو يطحن الحبوب بين أسنانه
غرووغ.. غرووغ!

* * *



صباحٌ خامِس

«.. اصفرَّ وجهُهُ وهو ينظرُ إلى غيَابِهما الوشيك. أرادَ أن يمضي وراءهما في التَّيه الأزرق لعلَّهُ يُعيدهما إلى حُضْنِهِ. نهَضَ عن الأرض. وقفَ على أطرافِ أصابعه ينظرُ بعيدًا. ابتلعتُهما الزُّرقة. لم يُقدِّرهما. أخذَ يُلَوِّحُ بيديه. يصيحُ بهما: رَحَّال.. زينة! ثم أطبقَ أسنانه على طرفِ ثوبه وراح يركضُ كالمجنون!..»

فتحَ عينيه عن آخرهما. هزَّ رأسه على غير دأبه، كأنه ينفضُّ عن رأسه صُورًا يوميةً يستحضرها منامه. لا يريدُ أن يرى أكثر. لا يريدُ أن يتذكَّر. جدَّة طارئة على حالٍ عِرْزال. هو لا يريدُ أن يقبل بالأمر. عيناه تشخصان في السَّقف ينظرُ إليه في ريبة. كأنه انتبه لتوّه إلى صمتِ أيامه، عزلته في وحشة المكان. مرَّ كَفُّه على المساحة الفارغة من سريره البارد. وضع كَفُّه الأخرى تحت منامته الرَّمادية يُمرِّرها على جسده. جلده متغصَّن جاف. تنهَّد. شردَ بعيدًا. تملَّت عيناه النظرَ في الفراغ كأنما يقرأ نصًّا خفيًّا. مالَ على جانبيه يُمسِكُ بالهاتف. لم يعبث بأزراره يُهايفُ طليقته. بدا شارِدَ الذهنِ يُحمِلُ في السَّماعَةِ. أعادها إلى موضعها ثم راح يحدِّقُ في شرح سقفيه.

«وَيَصِيرُ الصَّمْتُ جَوَابًا»

في الثالثة عشرة كنت، أو الرابعة عشرة ربما، عندما أمضيت وقتًا

طويلاً في حوشِ الغنم، مُندساً تحتَ لوحٍ من الصَّفِيحِ أَحَطَّتُهُ بِالوِاحِ
 خشبية، في غفلةٍ من الدَّجَاجَاتِ وَزَوْجِ الطَّاوُوسِ وَدَبُوكِ الحَبَشِ. كانَ
 الصَّيْفُ لَاهِباً وَرياحِ السَّمُومِ تُجَفِّفُ العُروُقَ. قَرَفَصْتُ عَلَى الأَرْضِ
 فوقِ أَعْوَادِ التِّبْنِ الجافِ، متحرراً من كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا سُرْوَالي القُطْنِي.
 عَشْتُ بِضَرْعِ قُطْنَةٍ وَمَسَدْتُ شَعْرَهَا. طَوَّقْتُ عُثْقَهَا بِذِرَاعِي. وَضَعْتُ
 رَأْسَهَا بَيْنَ كَفِّي وَرَحْتُ أُحَدِّقُ فِي عَيْنِهَا. أَصْحِيحُ مَا يَقُولُهُ وَالَّذِي
 دَائِماً عَنْ مَعْرَةِ الدَّارِ؟ هَلْ تَتَوَيْنَ تَرَكْ بَيْتَنَا، قُطْنَةُ، لَتَرَحَلِي مَعَ التَّيْسِ
 الغَرِيبِ؟! تَنْسَلُّ إِلَيَّ حَشَرَجَاتِ صَدْرِ الْعَجُوزِ فِي الْبَهْوِ. أَصَمْتُ لِثَوَانِ.
 رُدِّي عَلَيَّ قُطْنَةُ، قُولِي شَيْئاً. تَبْصُقُ بِصِيرَةٍ هُنَاكَ. تُجَبِّئُنِي قُطْنَةُ هُنَا
 صَمْتاً وَدَمْعَةً عَلَقْتُ فِي هَدْبِهَا. قَرَّبْتُ وَجْهِي إِلَى وَجْهِهَا مَاذَا لِسَانِي.
 لَعَقْتُ دَمْعَتَهَا. أَنْتِ مِثْلُ بَثْرُنَا الْمَجْنُونَةِ فِي وَسْطِ الْبَهْوِ، تَمْنَحِينِ رَيْقاً
 عَذْباً أَوْ دَمْعاً مَالِحاً وَفَقَ مَزَاجِكِ. أَفَلَتِ رَأْسَهَا مِنْ بَيْنِ كَفِّي تَبْتَعُدُ
 مُتَقَهْقِرَةً. بَدَتْ مُرْتَبِكَةً تُحْمِلُنِي فِي شَيْءٍ مَا عَلَى الأَرْضِ عِنْدَ زَاوِيَةِ
 حُجْرَةِ الصَّفِيحِ وَالْخَشَبِ. انْسَلَّتْ مُسْرِعَةً خَارِجَ الْحُجْرَةِ. التَفْتُ إِلَى
 الزَّاوِيَةِ أَعَايُنُ ذَلِكَ الشَّيْءِ الَّذِي نَفَرْتُ مِنْهُ قُطْنَةُ. جِسْمٌ غَيْرُ مَأْلُوفٍ مُلْتَوٍ
 شَفِيفٌ أَصْفَرُ. أَفْعَى الدَّارِ مَرَّتْ مِنْ هُنَا. ارْتَدَيْتُ مَلَابِسِي وَمَضَيْتُ إِلَى
 أَسْفَلِ السَّلَامِ أُفْرِغُ قَضْعَةَ بِصِيرَةٍ.

عِرْزَال

أَبْعَدَ عَيْنَيْهِ عَنْ شَرَحِ السَّقْفِ مُجَفِّلاً. طَرَدَ خَيَالَاتِهِ مَعَ قُطْنَةٍ.
 أَخْرَجَ كَفَّهُ مِنْ تَحْتِ مَنَامَتِهِ خَجِلاً. نَظَرَ إِلَى النَّافِذَةِ. فَيَرُوزُ لَمْ تُعَدْ
 تَدَسُّ الطَّعَامَ فِي مَنْقَارِي صَغِيرَيْهَا. تَكْتَفِي بِوَضْعِهِ عَلَى الدَّكَّةِ. صَارَ

بإمكانهما اليوم أن يأكلا من دون مساعدة الأم. ارتسمت ابتسامة هجينة بين جزع وحبور على وجه عِرزال الكهل. ينظرُ بودُّ إلى الصَّغِيرَيْن وقد كساهما الريشُ الرَّماديُّ الدَّاكِن. منقاراهُما ما زالا متورَّمين شأن أي حمامة غير مكتملة النمو. إذا ما نُجِتَ المنقارُ واتخذَ شكله النهائي تكونُ دلالات اكتمال النمو قد تَمَّت. أيامٌ قليلة وتطيران.. زينة.. رحال.. عِداني بأنكما لن تُطِلا الغياب.

هرعَ إلى النافذة مُسرِعًا هذه المرَّة. طارت فيروز. همَّ الصَّغِيران يتبعانها. يقفان على حافة الدَّكَّة بقوائمهـما الحمراء، يُصَفِّقان أجنحتهما من دون أن تتزحزح أقدامُهُما قيدَ إصبع. يجفلان. يُخَفِّقان في الفرار. يتراجعان إلى آخرِ الدَّكَّة. يلتصقان ببعضهما مُرتعشين. فتح الكهلُ النافذة. انحنى على الحمامتين المدعورتين. أنا عِرزال.. وعِرزال لا يُخيفُ أحداً.. عِرزال ليسَ أزرَق! ترك النافذة مفتوحة. استدَار نحو سريرهِ ثانية. ألقى بظهره على السَّرير. يستفزُّه السَّقْف. أمسَكَ باللحافِ يلقيه على وجهه.

«طلقة في صدرِ قُطنة»

ضمَّ والدي ساقه اليُمْنى إلى صدره مُتَكِنًا بركبته اليسرى على الأرض. صدره لَصِقَ ظهري. فكُّهُ السُّفْلِي مستقرًّا على كتفي الأيسر. يُطَبِّقُ كَفَّيْهِ على كَفِّي المُمَسِّكَتَيْن ببندقيَّة صيدٍ هوائيةٍ غصْبًا. فُوَّةُ البندقيَّة مُصَوَّبَةٌ إلى معزتي البيضاء التي أطلقها في البرِّيَّة قبل دقائق. أَسْتَشْعِرُ رطوبةَ ودفعِ أنفاسِه ورائحة التبغِ رَفَقَةً صوتِه الهامِس في أذُنِي. احبس أنفاسَكَ يا ولد قبل أن تضغط الزناد. معزتي البيضاء

تبدو هادئة تحت شجرة صفافٍ عملاقةٍ شَمَخَتْ في البرية. هائنة في أمنها تُغَطُّسُ خطمها في بركة ماءٍ خلفها المطر. أُنذِرُ طيورَ الشجرة متهيبةً مُرتابةً حتى خِلْتَنِي أَنْصِتُ إلى همساتها تُنبِّهُ قُطْنَةَ الغافِلَةِ إلى وجودنا. أُنذِرُ السَّوْرَلَ زَيْتِي اللون الدَّاكِن المَغْبِرَّ على نَلِّ رملِي غير بعيد، يستظلُّ بنبتةٍ رمرامٍ يابسة، ماذا عُنْقَه كَأَنَّمَا يَسْأَلُ مُرْتَابًا مَنْ هُنَاكَ؟! يَمْضِعُ الهواءُ بضمٍ مفتوح، كَأَنَّمَا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ مُسْتَكْبِرًا كَانَيْنِ طَارِئَيْنِ يُقْلِقَانِ رَاحَةَ البرية. أُنذِرُ مِلْحَ دموعي على شَفَتَيَّ والخوفُ يطوِّقُنِي بِأَمْرَيْنِ؛ أَنْ تُصِيبَ طَلْقَتِي معزتي الأثيرة وأن يلمح والدي الدمع في عَيْنِي. لَمْ أَضْغَطْ الزَّناد. والدي هو الذي فعل، أَقْسِمُ أَنَّهُ هُوَ، لَكِن البندقية كانت بين يَدَيَّ وكلُّ طيور البرِّ وزواحفه تشهدُ ضدي. سقطت قُطْنَةُ على جانبها بين الرَّمْلِ والماء تُفْرِفِرُ وتضربُ الهواءَ بقوائِمِها. غَابَ بياضُ صدرِها بِحُمْرَةِ الدَّمِ الذي تَشْرَبُهُ شَعْرُهَا وامتصَّ الثَّرَابَ قَلِيلَهُ. رَفَعْتُ رَأْسِي والدموعُ مَلَأَتْ وَجْهِي أَنْظَرْتُ إِلَى السَّمَاءِ أَرَصُدُ رَوْحَ بِيضَائِي فِي مِعْرَاجِهَا رَغْمَ أَنْ طَلَقَتْ بُنْدُقِيَةَ الصَّيْدِ الهوائيةِ لَا تَقْتُلُ حَيَوَانًا بِحَجْمِ معزتي. دَفَعَنِي والدي من ورائي. ولدا! ارْكُضْ واحضرها قبل أن يسبقك إليها كَلْبٌ مسعورٌ أو صَقْرٌ جائع. أَيُّ خِزْيٍ أَمَالَ وَجْهِي إِلَى الْأَرْضِ ظَهِيرَةً يَوْمِي ذَاكَ! اخْتَنَقْتُ بِشَهْقَاتِي كِي لَا يَسْمَعَهَا والدي. مَشَيْتُ ثَقِيلَ الْخُطَى غير قادرٍ على رَفْعِ رَأْسِي فِي حَضْرَةِ الصَّفَصَافَةِ الشَّامِخَةِ وساكِنِها. كُنْتُ أَنْصِتُ إِلَى وَشْوَشَةِ كُلِّ الْكَائِنَاتِ تَلْعُنُنِي. ارْكُضْ يَا وَلَدًا! صَاحَ بِي وَالِدِي. رَكَضْتُ مِثْلَ كَلْبٍ صَيْدَ مَأْمُورٍ. سَقَطْتُ مُتَعَثِّرًا بضعفي. أَثَرْتُ حَفِظَةً والدي. هَزَّ رَأْسُهُ حَانَقًا. اسْتَقَمْتُ وَالْغُبَارُ عَلَى ثُوبِي. وَلَجْتُ الْمَسَاحَةَ الظَلِيلَةَ الْكَبِيرَةَ

أسفل الشجرة العملاقة. انحنيت بذلّ. أمسكتُ بِ قُطنة الجريحة مِنْ قوائمها أحملُها كالمشلولة. مسحتُ سوائِلَ وجهي بكتفي المُتربة حتى أحلثُ دموعي ومخاطي خيوطاً من الطين على وجهي. استدرتُ أواجه والذي أفتعلُ تماشُكًا. المعزّة بين يدي رخوة مُدعنة تُصدِرُ نغاءً واهناً، يتدلى رأسها متارجحاً، والدّم يرسمُ نقاطاً تُحاكي خُطواتي. ناولته الصّيد. تمتَمَ يصفني لأوّل مرّة. رجل!

ركضتُ إلى أسفل السّلم فور وصولي إلى البيت أندسُ تحت لحافِ بصيرة، مُتخفياً عن سقّفها العليم، سمعتُ صوتَ قرع أوانٍ في المطبخ. كان والذي مشغولاً بِ قُطنة يتزعّجُ الطلقة مِنْ صدرها الدّامي. بكيتُ من دون صوت إلى أن خرج والذي مِنْ المطبخ يمسحُ بظهر كفه حليماً بلّل شاربه الكث.

بصيرة مولية وجهها إلى سقّفها المشروخ، ولا يزيدها السّقف إلا صمّاً فوق صمت. لا هي تُحدّثُ أزرق فتقنعه، ولا هو يُنصتُ إليها فيقتنع. دسّت كفّها أسفل اللّحافِ تُمسّدُ رأسي.

عرزال

أزاح اللّحافَ عن وجهه مُبعداً عينيه عن السّقف. مضى إلى مطبخه يُحضّر قهوته مثل رجلٍ ألي. وقفَ أمام الموقد وقد أشعل النار. بحلق في ماء القِدْرِ مُضطرب الحاجبين كأنما يشاهدُ أمراً جليلاً في قعرِ قِدره. يُمعِنُ نظره. فُقاعات صغيرة تنسلُّ من القاع تنفجِرُ في السّطح. تناهى إلى مسمعه صوته القديم مُنادياً. رَحّااااا.. زينة! بهت. أبعادَ ظهره إلى الوراء مُبقياً بصره على القِدر. تغيّر لونُ الماء

في نظره. زُرْقَةٌ يَمَقَّتْهَا انْبَثَقَتْ فِي الْمَاءِ السَّاخِنِ. نَفَضَ رَأْسَهُ. جَعَلَ يَقْضِمُ أَظْفَارَهُ مُبْهِلِقَ الْعَيْنِينَ. دَاهَمَهُ صَوْتُهُ الْآتِي مِنْ أَمْسِهِ ثَانِيَةً. أَطْبَقَ كَفَّهُ عَلَى أُذُنَيْهِ فِي حِينَ نِدَاءِ أَتِهِ الْقَدِيمَةِ تَتَزَاحَمُ دَاخِلَ رَأْسِهِ. أَدَارَ ظَهْرَهُ لِلْمَوْقِدِ وَأَخَذَ يَدُورُ فِي الْمَطْبَخِ مِثْلَ ذَنْبِ جَرِيحٍ. النَّدَاءَاتُ فِي رَأْسِهِ تُخَالِطُ خَفْخَفَةَ الْمَاءِ الْمَغْلِيِّ. التَفَتَ إِلَى الْقِدْرِ. مَضَى إِلَيْهَا مُسْرِعًا. وَقَفَ أَمَامَ الْمَوْقِدِ مُنْحَنِيًا مُتَرَدِّدًا، يَعْقِدُ حَاجَبِيَهُ يُضَيِّقُ عَيْنَيْهِ كَأَنَّمَا يَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ وَرَاءَ الْبُخَارِ الْمُنْبَعَثِ مِنَ الْمَاءِ الْمَغْلِيِّ. غَطَسَ كَفَّهُ الْيُمْنَى فِي الْقِدْرِ وَهُوَ يَصِيحُ بِالصَّغِيرِينَ. زِينَةُ. رَحًا!!! أَلَا أخرج كَفَّهُ مُلْتَهَبَةً ثُمَّ رَاحَ يَرْكُضُ كَالْمَجْنُونِ.

«صَمْتُ عَلَى صَمْتُ»

رَكَضْتُ إِلَى قُطْنَةٍ فِي حَوْشِ الْغَنَمِ بَعْدَمَا أَفْرَغْتُ قَضْعَةَ بَصِيرَةٍ، كَأَنَّمَا أَطْلُبُ رِضَاهَا وَغُفْرَانَ مَا أَكْرَهْتُ عَلَى فِعْلِهِ. وَقَفْتُ لَاهِنًا وَسَطَ الْحَوْشِ أَصْبَحُ مُتَلَفِّتًا. قُطْنَةُ.. قُطْنَةُ! يُجِيبُنِي الصَّمْتُ بِرَحِيلِهَا. لَمْ تُكُنْ عِنْدَ الْحَوْشِ الْبَلَّاسْتِيكِيِّ تَكَرَّعُ مِنْ مَائِهِ، وَلَا قُرْبَ أَكْوَامِ الْبَرَسِيمِ تَعْتَلِفُ، وَلَا تَسْتَظِلُّ تَحْتَ لَوْحِ الصَّفِيحِ وَرَاءَ أَلْوَاكِ الْخَشَبِ. فَتَشَتْ عَنْهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ. لَا أَثَرَ إِلَّا لِجَرَسِهَا الذَّهَبِيِّ الصَّغِيرِ بِشَرِيطَتِهِ الزَّرْقَاءِ فَوْقَ الْبَرَسِيمِ الْيَابِسِ. ارْتَابَتِ الدَّجَاجَاتُ لَجَنُونِي وَتَنَاثَرَتْ فِي الزَّوَايَا تُتَقَنِّقُ. انْكَمَشَ ذَيْلُ الطَّائِفِ الَّذِي كَانَ مُنْهَمِكًا بِمُغَازَلَةِ أَنْثَاهُ، هَرَبَ صَاغِرًا يَكْنِسُ الرَّمْلَ بِذَيْلِهِ. انْدَسَّ إِلَى جَوَارِ أَنْثَاهُ وَرَاءَ أَخْيَاشِ الْعَلْفِ فِيمَا كَانَ دَيْكُ الْحَبَشِ يُحْمِلِقُ فِيَّ، بِوَجْهِهِ الْأَحْمَرِ، يَصِيحُ بِي حَانِقًا مُتَخَابِلًا أَمَامَ إِنَائِهِ الْمَذْعُورَاتِ. لَمْ أُعِرْهُ اهْتِمَامًا وَأَنَا أَلْتَقِطُ أَنْفَاسِي

أَتَفَكَّرُ فيما قاله والدي. ما كدتُ أَتَذَكَّرُ كلماته وأُستَعِيدُها حتى لفظها ضاحِكًا: معزةُ الدَّارِ، يا ولد، تُحِبُّ التَّيْسَ الغريب! التَّفْتُ ورائي. وجدته واقفًا يَضُمُّ ذِراعِيه إلى صدره. أَطَبَقْتُ فُكِّي أَشِيرُ إليه بِسَبَّابَتِي. أنتُ تَكْذِبُ! صَحْتُ بِهِ. لَطَمَنِي لَطْمَةً أَوْقَعَتَنِي أَرْضًا. أَزْرُقُ لَا يَكْذِبُ! قال، ثُمَّ غَابَ تَارِكًا إِيَّاي وراءَ ظَهْرِهِ. اعتدلْتُ في جِلْسَتِي. نَفَضْتُ الثَّرَابَ وَالتَّبْنَ عَنْ كَتْفِي وَذِرَاعِي وَوَجْهِي. ضَمَمْتُ سَاقِي إِلَى صَدْرِي وَأَسْنَدْتُ جَبِينِي بَيْنَ رُكْبَتَي مُؤَمَّنًا بِأَنْ أَزْرُقَ لَا يَكْذِبُ. رَحْتُ أَرَفَضُ هَامِسًا. حَمَامُ الدَّارِ لَا يَغِيبُ. حَمَامُ الدَّارِ لَا يَغِيبُ. سَاعَةٌ مَضَتْ. أَكْثَرَ رُبَّمَا. رَفَعْتُ رَأْسِي أَرْهِفُ سَمْعِي. صَمْتُ لَا قِبَلَ لِي بِهِ. بِصِيرَةٌ! نَادَيْتُهَا بِصَوْتٍ عَالٍ وَعَاوَدْتُ الإِصْغَاءَ أَتَحْرَى سَمَاعَ صَوْتِهَا تَبْصِقُ فِي الْبَهْوِ أَسْفَلَ سُلْمِهَا.

عِرْزَال

أَفَلَتَ صُراخًا، وهو يَرْكُضُ كَالْمَجْنُونِ، ضَجَّتْ بِهِ شُقَّتُهُ. أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى جِدَارِ الْممر. قَرَّبَ كَفَّهُ الْمَلْتَهَبَةَ إِلَى وَجْهِهِ وَقَدْ تَغَضَّنَ جِلْدُهَا وَتَوَرَّمَ وَاحْمَرَّ. عادَ إِلَى مَطْبَخِهِ يَمْضِي صَوْبَ الثَّلَاجَةِ يَعْتَصِرُهُ أَلَمٌ. دَسَّ كَفَّهُ فِي كَيْسِ الثَّلَجِ وَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ. أَمْضَى نِصْفَ سَاعَةٍ عَلَى حَالِهِ هَذِهِ قَبْلَ أَنْ يَتَبَّنَّهَ إِلَى سَيْلِ الثَّلَجِ يَعْبُرُ ذِرَاعَهُ خِيوطًا سَائِلَةً تَتَجَمَّعُ فِي مَرْفِقِهِ وَتَقَطُرُ عَلَى قَدَمَيْهِ الْحَافِيَةِ. أَطْرَقَ بِرَأْسِهِ إِلَى الْأَرْضِ. بَرَكَةٌ مِنَ الْمَاءِ تَكُونَتْ أَسْفَلَ قَدَمَيْهِ فَوْقَ الْبِلَاطِ الْأَزْرَقِ. سَحَبَ كَفَّهُ مِنَ الثَّلَاجَةِ تَارِكًا نَتْفَ جِلْدِ مِيتٍ بَيْنَ قِطْعِ الثَّلَجِ. فَطِنَ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى إِلَى لَوْنِ أَرْضِيَةِ مَطْبَخِهِ. أَقْعَى يَمْدُ كَفَّهُ الْيُسْرَى يُغَطِّسُ

رؤوس أصابعه في الماء. جلس على رُكْبَتَيْهِ. مالَ برأسه يُدْنِيهِ إِلَى سَيْلِ الثَّلْجِ عَلَى الْأَرْضِ. أَحَاطَ فَمُهُ بِكَفَيْهِ وَهُوَ يَهْمِسُ. رَحَّالٌ.. زِينَةٌ.. أَنَا.. أَنَا آسَفٌ.

«ضَجِيجُ الصَّمْتِ»

صَمْتُ مُزْعِجٍ. لَيْسَ لِلصَّمْتِ اقْتِرَانٌ بِالْهَدْوِ، الصَّمْتُ مُحْضٌ مَوْتٌ، وَالْمَوْتُ فَقْدٌ. أَنَا أَكْرَهُ الْفَقْدَ. رَحْتُ أَحْصِي الثَّوَانِي فِي سِرِّي يُسَابِقُهَا وَجِيبُ قَلْبِي. عَشْرٌ. عَشْرُونَ. ثَلَاثُونَ. دَقِيقَةٌ. اثْنَتَانِ. ثَلَاثٌ. الصَّمْتُ يُطَوِّقُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى غَيْرِ عَادَةٍ. دَاهَمَنِي قَلْقٌ أَعْرَفُ مَصْدَرُهُ. كَيْفَ لِلدَّقَائِقِ أَنْ تَمْضِيَ هَكَذَا مِنْ دُونِ ذَلِكَ الصَّوْتِ؟ أَطْلُقَ دِيكَ الْحَبَشَ صَبِيحَتَهُ الْمَجْنُونَةِ كَأَنَّمَا تَسْرَبُ إِلَيْهِ قَلْقِي، يَدْفَعُنِي لِأَسْرَعِ وَأُطْمَئِنُّ عَلَى الْعَجُوزِ فِي الْبَهْوِ أَسْفَلَ سُلَّمِهَا. أَخْرَسَتْهُ بِإِشَارَةٍ مِنْ يَدِي. مِلْتُ بِرَأْسِي أَصْغِي عَلَى صَوْتٍ يَتَسَلَّلُ مِنَ الْبَابِ الْمُفْضِي إِلَى الْبَهْوِ، لَكِنِ الْبَهْوُ كَانَ أَبْكُمْ عَلَى نَحْوِ مُرِيبٍ. اسْتَقَمْتُ وَاقِفًا أَجْزُ ثَقُلَ خَطَوَاتِي خَارِجَ حَوْشِ الْغَنَمِ مُتَحَرِّيًا مُرْتَابًا.

عِرْزَال

تَسَارَعَتْ أَنْفَاسُهُ وَقَدْ بَدَأَ مِثْلَ مَجْنُونٍ يَنْتَظِرُ مُجِيبًا مِنْ بُقْعَةِ الْمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ. اسْتَقَامَ وَاقِفًا شَاخِبَ الْوَجْهِ لَاهِيًا. أَرْسَلَ نَظْرَهُ يَحْدُجُ السَّقْفَ غَاضِبًا. حَسَنٌ! أَسَرَ لِنَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْرَعَ الْخَطْوُ إِلَى خِزَانَةِ الْمَمَرِّ يَفْتَحُ بَابَهَا الْخَشَبِيَّ بِقُوَّةٍ، غَيْرَ مَكْتَرِثٍ لَوْخِزِ الْحَرُوقِ فِي كَفِّهِ. قِصْعَةٌ خَزَفِيَّةٌ وَقَعَتْ مِنَ الْخِزَانَةِ وَتَهَشَّمَتْ. تَجَاهَلَهَا. تَنَاوَلَ بِنَدَقِيَّةٍ

صيدٍ هوائية. مسح عنها الغبار بكُمٍ منامته. طوى سَبَطانتها. نفخَ فيها. ألقَمها طَلْقَةً ثم هرعَ إلى غرفةِ نومِه. أطلَّ برأسِه مُحترِسًا لئلا تلمحهُ فيروز وقد آبَت لتَوَّها إلى دَكَّة النافذة المفتوحة. تقدَّم على رؤوس أصابعه مُصَوَّبًا بندقيته إلى الحمامة الأُم. هذه الحمامة غير جديرة بالحياة! ضغط الزئاد بسبَّابة ترتعش. أخطأها. فرَّت هاربة. أفلتَ البندقية على الأرض ومضى إلى النافذة مَادًّا ذِرَاعِيه أمامه مثل أعمى يتحسَّس دربُهُ. التصقت الحمامتان ببعضهما على حافة الدَكَّة. اقتربت يداه إليهما. زينة.. رَحَّال! كاد يُمَسِّك بهما لولا أن صَفَقا بأجنحتهما الهواء وأخذَا يُجَلِّقان باضطراب. بهت الكهلُ وهو ينظر إليهما وقد حطَّتا على سعفة النخلة التي صارت تهتز. انتفض. أطبقَ كَفَّيه على إطار النافذة يدفعُ جسده لولوجها. حَطَّ بقدميه على الدَكَّة ووقف مُتَحَنِي السَّاقَيْن يرتعش. لَوَّحَ بيديه منادياً باسميهما يتوسَّلُهُما. لا تذهبا! ولكن الحمامتين لم تستقرَّا طويلاً على السَّعفة المضطربة. أطلَقتا أجنحتَهُما للريح فيما ظلَّ الرجل واقفاً بساقيه المُقَوَّسَتَيْن مُشرَّتب العُنُق يُرْسِل نظره وراءهما.

«حمامُ الدَّارِ يغيب»

كنتُ مؤمناً بأن بصيرة لا تغيب، غابت حمامتاي الأثيرتان، غابت أُمِّي، وبقيت هي على قيد موتٍ مؤجَّل. ماتت بصيرة أسفل السَّلَم وقتَ فقدِ معزتي الأثيرة. ذهبْتُ مثلما جاءت هادئة ساكِنة. تلك التي لم أتيقَّن وجودها، رغم أنها موجودة مثل شيءٍ أكيد، كانت وقتَ غياب زينة ورَحَّال وأُمِّي تبثني إيماناً بعودة الغائب، ورحلت حامِلة

في مزودها وعودًا كاذبةً يومَ رحيل قُطنة. ما كنتُ لأنتبه إلى موتها لولا افتقادي حشرجات صدرها، ذلك الصَّوت المدموغ في ذاكرة البيت. خرجتُ ثَقِيلَ الخُطى من حَوْشِ الغَنَمِ مفجوعًا بخلوه من صاحِبَتِي. وجدتُ العجوزَ فاغرة الفمِ تحدِّقُ إلى السَّقْفِ وقصعة البُصاقِ إلى جوارها فارغة من مُخاطِ صدرها.

مكثتُ أيامًا أسفل السُّلَمِ أضْمُ رُكْبَتَيَّ إلى صدري. أُسِنْدُ إليهما جبيني. أُمَتِّي نفسي بعودةِ بصيرة إذا ما رفعتُ رأسي أجدها، تُثَبِّت لي صِدْقَ قولها بشأن حمام الدَّارِ، ولكن صاحبة القول لم تعد لأُصَدِّق، أو لأسألها عن عودةِ قُطنة وتكذيبِ حكايةِ التَّيسِ الغريب. اقترَبَ مني والدي. انحنى بجذعه يسألني بين ريبةٍ وقلق. عِرْزال! لك أيامٌ تمضي مُعْظَمُ الوقتِ أسفلَ السُّلَمِ، ما بالك؟! رفعتُ جبيني عن رُكْبَتَيَّ أَنْظُرُ في وجهه. كان مُضطرب الملامح لا يُخْفِي قلقًا على غير عادة. لم أقوَ على إمساكِ رِشَّةِ شَفَتِي. أَشْتاقُ بِصيرة. قلتُ له. مَطَّ شَفَتِيهِ رَافِعًا حَاجِبِيهِ يُبْهِلِقُ في وجهي ومسحَّةُ حُزْنٍ لم أعهد لها على وجهه. بصيرة؟! قَطَّبَ حَاجِبِيهِ. ألصقَ ظاهرَ كَفِّهِ على جبيني يتَحَسَّسُ حرارتي. بصيرة من؟! لم أحر جوابًا. رحتُ أطوفُ ببصري على الركن الضيق حولي لعلَّه يفهم. هزَّ رأسَهُ آسِفًا. مضى نحو الباب يهْمُ بالخروج. أنتَ تتوهم أشياء غريبة عِرْزال! لم أفكر أن أصرُخَ به اتَّهمهُ بالكذب، ليس خشية صفةٍ يُفْلِتُهَا غَضْبُهُ، ولا تحاشيًا لقوله المُحتمل؛ أزرق لا يكذب، إنما لأنني صرتُ مؤمنًا بأن أزرق لا يكذب، وأن بصيرة التي قالت إن حمام الدَّارِ لا يغيب، لم تضدق، وغابت هي بعد حمام الدَّارِ! حتى عندما لمحتُ حمامةً شاخِصةً العينين مريضةً لا تُشَبِّه زينة فوق قفص

الحمامة الأم، يُطَوَّقُ إحدى قائمتيها جِعلُ وردِي، رفضتُ التصديق بأن مُلتوية الرقبة، تلك الكسيحة، هي زينة أخت رَحَّال، وقد أصابها صَرَعُ الحمام، هذه ليست حمامتي الأثيرة التي تاهت مع شقيقها في زُرْقَة صحراء الجنوب. من تُعَيِّبُه الزُّرْقَة لا يعود.

عرزال

غابت الحمامتان عن نظره في زُرْقَة السَّماء. خَلَّتْ دَكَّتُهُ من كائناته الوديدة. شُلَّ صَوْتُهُ لم يُعَدِّ قادِرًا على مناداة من آمن بأنهما زينة ورَحَّال. أزاح قَدَميه ببطءٍ إلى حافة الدَّكَّة. ألصقَ ساقيه ببعضهما. فتحَ ذراعيه مُنَحْنِي الظهرِ فيما يُشْبِهُ وقفةَ استعداد غطَّاسٍ يهْمُ بالقفز. أغمضَ عينيه ثُمَّ..
بقي ساعاتٍ على حاله تلك.. ثُمَّ..

* * *

أثناء ساعة تأمل

قُصْنَتِ

أغمضَ عينه التي ترى كلَّ شيءٍ. أوغل في تأمله يستحضرُ بعضنا، واحدًا تلوَ آخر. يُقلِّبنا في رأسه ويعيدُ تكويننا. يلعبُ دورًا لا يُجيده. يلعبُ دورَ إلهٍ في أسطورةٍ قديمة.

كنتُ عالقةً فيما يُشبه العدمَ قبل أن يستحضرنا مؤلِّفنا ساعة تأمله. مؤلِّفنا ومالكُ أمرنا وسقُّفنا الآمن إن هو أحبُّنا. لهُ المجدُ الأدبيُّ عدَدَ مؤلِّفاته وما حملتُ من حروفٍ وكلمات. نُدهنُه ونتوسَّلُ رضاهُ ولا نستَفِزُه لِئلا يكتُـبَ لنا نهايةً بائسة. مؤلِّفنا موجدنا القوي الضَّعيف الصَّامِت المتورِّط الدَّائم في صنْعِه. يجيءُ بنا من عدمٍ، يقتلُ فائضَ وقته برسمِ أقدارنا. ينالُ مجدًا وشهرة. ينالُ سُموًا يليقُ ببهاءِ صنْعِه. مؤلِّفنا الحقيقُ بكلِّ مجدٍ إن داهمهُ مللٌ، عسى ألا يُداهمه، يتركنا حيارى في دائرةٍ مُفرغةٍ، في جحيمِ الدُّرج السُّفلي، نتخبَّطُ في صفحاتِه الناقِصةِ على غير هُدى. كم مِن مخطوطٍ لم يُنَجَز بسببِ عصيان شخصيَّاته وتمرُّدها على مصائر قَدَرها لها. كم مِن لوحةٍ خانته ألوانها بما لا يروم قوله رسمًا. صار مصيرها الدُّرج السُّفلي المظلم في مكتبه. أيُّ مصيرٍ أسوأ من أن يتخلَّى عنك كاتيك، يدفعُ بك إلى ظلامِ الدُّرج مُعلِّقًا بلا نهاية؟!

مِلْتُ بين يديه في ساعة تأمله. ساعة استثنائيةٍ نادرًا ما تجيء

تمنحنا فرصة أن نقول، وإن بحذر. ساعةً تقتربُ فيها منه على غير عادة. في ساعة تأمله يحقُّ لنا ما لا يحقُّ في وقت الكتابة. ساعة بُشِّرنا بها كثيرًا، أعيشُها للمرَّة الأولى. مثلتُ أمامه طائفةً مُستسلمة وقت عصته الشخصية الضَّعيفة عِرزال ولم تُلَبِّ نداءه ساعة التأمل. أخفق في فهم شخصية ابتكرها. من تكون؟ ومن أين جاءت؟ كيف ولماذا؟ كنتُ في زاوية البيت العربي إياه، ذلك الذي أوجده صاحب النص. أثت المكان بكلِّ تفاصيله وحضر صامتًا ينطق وِقارًا رغم حضوره بثياب رماديَّة تبدو ثياب نوم. مرَّ نظره على المكان من حوله كأنما يتحقَّق من دقَّة وصف جاء في أوراقه. نظرَ إلى قِدر معدنية فوق منقلة الفحم. رفع كفاً ملفوفة بضمادة طبَّية أمام وجهه يتملَّى في باطنها وظهرها، ثمَّ ناء ببصره عن القِدر. تابع السَّير في البهو القديم غير المسقوف. البئر في الوسط. الصورة العائلية على الجدار تضمُّ زوجين وأبناءهم الأربعة. الأرائك الأرضية والمساند ومفارش الحصر والصُّندوق الخشبي الأسود المطعَّم بنقوش ذهبية، كلُّ الأشياء في مكانها. راح يتحرَّك في المكان يُغيِّر تفاصيله. يُحيل أبواب الألمنيوم إلى أبواب خشبية. يبدو الخشب ملائمًا أكثر. يوجد صندوقًا حديدًا عوضًا عن الخشبي. للزَّمن اشتراطاته! يصمت قليلًا قبل أن يُردف مخاطبًا نفسه. ولما تملَّيه عليَّ الذَّاكرة!

تقدَّم بضع خطواتٍ إلى أسفل السُّلم ينحني على بصيرة. خلف انحناءه وقعًا مربِّكًا في نفسي انحنى له كلُّ ما في. مرَّ كفُّه أمام وجه العجوز. تهلَّل وجه بصيرة وغشني وجهها الباسم دمعًا غزيرًا. هذا أنت؟! تأخرت كثيرًا! قالت بصوتها الضَّعيف. وهنتُ حتَّى مُتُ.

تركتُ الفتى. لم يعد لي مكانٌ هنا فقد استحوذ أزرق على كُلِّ شيء. دنوتُ من البئر القديمة وراء ظهره أُصيحخ السَّمع. أنصتُ إلى حوارِ هامسٍ بين مؤلِّفنا والعجوز الباسِمة الحزينة. مؤلِّفنا دأَمَ حرفه واتسعَ خياله يُحدِّثُها وتجيبه عن كُلِّ سؤال، تمنحه فهمًا للنص. التفتت العجوز إلى السُّلم تزامنًا مع نزولِ أزرق من السَّطح. أدارَ مؤلِّفنا وجهه تجاوبًا مع التفاتةٍ بصيرة. بدا أزرق كما لو أنه لا يرى بهاء الكاتب وهالته التي تشعُّ في بهو بيته. هو في الحقيقة لا يرى سواي. بحلقت فيه بصيرة قبل أن تستجمع نُخام صدرها. خخخ يتف! اهتزَّ الكاتبُ ضجيجًا ارتجفت له أركان البيت. مضى أزرق نحو البئر يحدجني بنظرةٍ مقبته، في حين كنتُ أبُحلقُ مُرتبِكةً نحو المؤلف والعجوز. التفتَ نحوهُما صوب السُّلم. أعاد النظر إليَّ يستغربُ ارتباكِي وشخوصَ عيني نحو أسفل السُّلم. لم يرَ أحدًا. أرخى جبلَ البئر يزعبُ من مائها. غطَّسَ كَفَّهُ في الدلو قبل أن يُقَرِّبها إلى فمه يتذوق. بصقَ الماء. مالح! أسندَ كَفَّيه إلى سطح البئر مُحدِّثًا نفسه. مياه المذ! أزرق البغيضُ يوجِدُ لكلِّ شيء سببًا. هو لا يؤمنُ مثلنا بمزاجِ البئر القديمة؛ يجيءُ ماؤها عذبًا بشيرَ خيرٍ مُقبلٍ، يجيءُ مالِحًا نذيرَ شؤم. يعزو صاحب البيتِ مزاجَ البئر إلى مياه البحر قُرب بيته؛ تُفسِدُ في أويتها مَدًّا مياه البئر!

التفتَ مؤلِّفنا إلى صاحب البيتِ يصيحُ به. يا أزرق! لكن أزرق مضى إلى السُّلم يمسحُ ملوحة شفثيه بكُم ثوبه من دون التفات. كنتُ مطرقةً مُترددةً وقتَ قطب مؤلِّفنا حاجبيه. نظر إليَّ شاخصًا. تمتم: ممم— هذه أنتِ يا قطنة! هزرتُ رأسي. حدَّثني عنكِ وعمَّا

يجري هنا. أجفَلْتُ. أنا؟! فرَّ صوتي. ابتلعتُ ريشي قبل أن أردِف. كيف لي أن أعْرِفَ ما لا تعرف؟ هز رأسه. مضى صوبَ مدخل حوشِ الغنم. كمشَ بكفِّه أعوادَ برسيم من كومةٍ على الأرض. اقتربَ مني يرمي البرسيم على الأرضِ أمامي. واصلتُ حديثي. أنا لا أعْرِفُ عني إلا ما كتبتُ يدُكَ مانحةَ الحياةِ كاتبةَ النهاية. تفكَّرَ مؤلَّفُنا وقد استحسن ردِّي. هذا جيّد، معزةٌ خلوة! رفع حاجبيه كأنه تنبّه إلى شيءٍ أغفله. ردَّدَ الكلمة كأنما يستطيع حلاوتها. خلوة.. قُطنة خلوة. يبدو أنه تلقَّفَ فكرةً في ساعةِ التأمل هذه. فكرةٌ لعلَّها تدفعه لإنجازِ ما كَتَبَ وحماية النصِّ من مصيرِ المخطوطاتِ الملعونةِ في حجيم الدُّرج السُّفلي.

أنتِ لستِ معزةٌ بربريةٌ بيضاء في حوشِ الغنم كما يزعمُ عِرزال. هذا ما يُزوِّره الكهل في مذكَراته، وهذا ما يُعرقل سيرَ النصِّ. كنتُ أنصِتُ إليه مُطرقة. أنتِ بيضاء، بيضاء كالقطنِ يا قُطنة ولكنكِ لستِ معزة. حكَّ صلعتَهُ قبل أن يستطرد. ممم. هذا جديدٌ يمنحني مساحةً أبني فيها جسرًا يعبرُني إلى الصفحة التالية. أخذ يذرُع بهو البيت جيئةً وذهابًا يشبكُ أصابعَ كفِّه وراء ظهره. فلنقل إنكِ أخته. أخت عِرزال. الوحيدة في ذلك البيت العربي القديم التي تنصّت إلى أحاديثه وقت الضُّجر. ولسببٍ ما كتبكِ في مذكَراته معزة بربرية. ماذا يكون السبب؟ صمّت قبل أن يتدارك. لا! لقد منحتِ عِرزال أكثر من الإنصات في حوشِ الغنم وهذا لا يليقُ بأختٍ أكتبُها وفقَ نوااميس كتابتي! أنتِ ابنة عمِّه أو ابنة خاله الأثيرة. لا! تردَّد قبل أن يقول. أنتِ ابنة «العبدَة»، و«عبدَة» بطبيعة الحال. تخضَّلت عيناه على نحوٍ مُفاجئ كأنما أخذته خيالاته إلى فاجعةٍ قديمة. طأطأ يُمرُّ ظهرُ إصبعه أسفل

عينيه. رفع رأسه ينظر صوبي لكنه بدا وكأنه لا يراني. خليطُ حزنٍ وسعادةٍ خجلى بدت على وجهه الباسم. قُطنة يتيمة الأب، «العبدة»، التي تكبرُ عِرزال بعشرِ سنواتٍ والتي تسكنُ في عشية ضيقةٍ في حوشِ الغنم. قُطنة التي تزوجت من رجلٍ غريبٍ أخذها بعيداً. انفجرَ مؤلفنا، كثرَ قُرَاؤه وأصابت معانيه، يصرخُ وقد تصاعدت دماؤه إلى وجهه كأنما تذكرُ أحداثاً بعيدة. للمرةِ الألف؛ صدقَ أزرق، معزة الدَّار تُحبُّ التيسَ الغريب! عادت ابتسامته فجأةً. ولكنكِ لستِ معزة!

تنهد مؤلفنا موعلاً في تأمله غائراً في الصمت. بدا حزيناً وهو ينظرُ إليَّ بإمعان. أخذَ يُقلِّبني ويُعيد تشكيلي في رأسه. يضاء البشرية مُجعَّد شعري كستنائي اللون. واسعة عيناىٍ دعجاوان كُتتا الرُّموش. دقيقة الأنفِ والشفتين. منحوتة الخصرِ مستديرة العجيزة. ناهدُ بستان مُشجَّرٍ ضيقُ أعلاه يتسع مع انحناءِ الخصرِ نزولاً ينتهي عند حدِّ الركبتين. مكثَ في مكانه مُبعداً صدره إلى الوراء يُحدِّق في صنعه كأنما ينقصني شيء يُكمل صورةً يعرفها. لطَّخَ باطنَ كفيَّ وقدميَّ بالحناء، ثم تراجع عن دقَّة الشفتين ومنحهما اكتنازاً وُحمةً تميلُ إلى البني. أخذَ يُصوِّرني في مواضع عدة على الأرض، بين العُشَّة ولوح الصَّفيح في حوشِ الغنم، مُستسلماً بضجة عِرزال في غفلةٍ من أزرق. على أعوادِ التبنِ اليابس نسبحُ في عرقٍ نكتشفُ أنفسنا بدهشةٍ أولى، ورعشةٍ ليس الخوف مصدرها.

أعادني مؤلفي ماثلةً أمامه، في غرفة مكتبه، كأنه أتمَّ رسمه لما هو مُقبل. هذه قُطنة التي أعرف. اذهبي واستنظقي عِرزال! قال بدهاء. شغلتنى تفاصيل غرفة المكتب عن أمره. شدتني لوحاتٍ غصت بها

الجُدران؛ رسومات باهتة اللون لشخصياتٍ شائهة الوجوه جاحظة العيون، حمامٌ وأطفالٌ وسماءٌ وبحرٌ، غُرِفٌ ضيّقةٌ بلا أبواب، نوافذ تطلُّ من ورائها حمامات دَميمة، ورجلٌ مربوطةٌ أطرافه بخيوطٍ موصولةٍ بالسَّقْف. مرَّر المؤلفُ كَفَّهُ مبسوطة أمام وجهي. هل سمعتِ ما أقول؟ اذهبي للكهل قُطنة. استدرتِ مُطأطئةً أمضي نحو وجهه قديمة. أَرَدَفَ مُتَبِّهاً وهو يدري بِنَيْتِي زيارة عِرزال في حوش الغنم صبيّاً طيِّعاً لَيْناً لا يُمانِعُ الحديث. استنطقه كهلاً. لا حاجة لي به صبيّاً غُراً ليس لديه ما يقول! أخفضَ صوته كأنما يُحدِّثُ نفسه. امنحيه فُرصةً أن يراكِ في وقتٍ يحتاجُكِ فيه، لِيُريكِ كيف صار، وكيف كان يتمنّى لو أنكِ أُمٌّ توأَميه. نفَضَ رأسه كأنه يطردُ أفكاره. أرسل إليَّ نظرةً فاحِصةً مُشَطَّطٌ جسدي. خُذِي مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ ولا تمنحيه أيَّ شيء. هُوَ أَقْسَمَ لزوجته أن لا امرأةً بعدها. اكتفي بكونكِ امرأةً قبلها. كُنْتُ أَنْصِتُ ولا أدركُ لقوله معنى. اسأليه قُطنة؛ لماذا لم يُلْقِ بنفسه من النافذة؟

صارَ يُملِي عليَّ دوري المقبل:

اسمعي ما أقوله قُطنة. سوف أحملكِ إلى شُقَّتِهِ الباردة. يكون عِرزال على حاله ساعة تركته على دَكَّةِ النافذة، مُطبَّقِ الجَفْنَيْنِ، وقد أمضى ساعاتٍ فاتِحاً ذراعيه مُنتصباً، مثل صليب. هاجِسٌ يُخَالِفُ رَغْبَتَهُ في الحياة يدفعه إلى القفزِ مِنَ النافذة. هذا الهاجِسُ هُوَ أنا. كاتبُ النَّص. لن يكون عِرزال قد فَهَمَ ما يجري له وما يدورُ حوله، يتساءل: ولكن عدم الفهم وحده ليس مُسوِّغاً لإنهاء حياتي على هذا النحو. لو أنني فهِمْتُها لربما أموتُ بغيرِ اكتراث!

سوف يتنبّه إلى رنين جرس الباب، كأنما الجرس يتواطأ مع رغبته بعدم الموت على هذا النحو حين أخذ يرُنُّ بِالْحاح. يُعاوِد عِرْزال عبورَ نافذته دخولاً إلى الغرفة. يُزعجه ما يجهل فيها؛ نافذة خالية من ستارةٍ أسقطها صغيران لا يدري متى وُلدا أو إلى أين غابا، هاتِفَه المهمَل الذي يجيء بصوت طليقةٍ لا يتذكر زواجه منها، دفتر المذكراتِ وبنّدية صيدٍ هوائيةٍ مُلقاةٍ على الأرض. سوف يوصد النافذة ويُسند ظهره إلى زُجاجها. لن يُمهله رنينُ الجرس لحظةً يلتقط أنفاسه. يُسرِع الخطى إلى الباب. مَنْ هناك؟ يفتحه. فتاةٌ تشعُّ جمالاً وفتنةً تُبدّد ظلمة الممر بحضورها. تلك أنتِ كما يراك. تهبطين بنظركِ إليه وقد كنتِ تنظرين إلى سقف الممر. إليّ. بهمٌ يسألكِ عن حاجتكِ. تُبادرين: أيمكنني الدخول عِرْزال؟ يبهت. يتراجع حُطّوتين. يُهمهم: غرابةٌ تلو غرابةٍ تدحض أيّ فكرةٍ تُمنطق وجودي لن تملكي إزاء تأخره في الرّد إلا أن تُعرّفه بنفسك: أنا قُطنة. يُبعدُ نظره عن وجهكِ ينظرُ جانباً إلى دفتر المذكرات. يحدثُ نفسه: أظنني أتذكّرُ شيئاً بشأن الاسم. أتذكّره قراءةً. يُعاوِد النظرَ إليك. أنتِ لا تبدين بالصورة التي قرأها في مُذكراته. تبتسمين مُترددة: عيد ميلاد سعيد. يرفعُ حاجبيه استفهاماً ولا يرد.

يفتحُ الباب على اتساعه يدعوكِ للدخول. تسبقينه إلى غرفة الجلوس كأنك تعرفين المكان جيّداً فيما يُلقى إليك بسؤاله وهو يوصد الباب. أهو يومُ ميلادي؟! تنظرين إليه من وراء كتفكِ وأنتِ تمضين نحو الأريكة بابتسامة. نعم، أتممت الخمسين اليوم. يمتطئ شَفَتَيْه. حسنٌ.. يبدو الأمر مُمتعاً. يُشيرُ لكِ يادُنُ بالجلوس كأنما

تهتمين لإذنيه. تجلسين. أخشى ألا يكون الوقت مناسباً، تبدو مشغولاً. يهزُّ رأسه يدفعك للحديث. لا أذكر أنني شُغِلْتُ بشيء مفهوم اليوم أو أمس، كلُّ شيء يجري على نحو غريب، حتى هذا اللقاء سوف أتذكره غداً ضبابياً شأن كلِّ شيء ماضٍ يوم أمس. سوف يجلسُ على مقعدٍ أمامك، يُحدِّقُ في تفاصيل منحنك إياها. تبدين مثل ثمرة تتضوُّع أريجاً شهياً يكادُ يفلتها غصنٌ أثقلَ بعصارة نُضجها. شعركِ الثائر، عيناكِ الواسعتان ورموشكِ الكثَّة وأنفكِ الدقيق، عُنُقكِ الطويل وصدركِ الموشوم بشاماتٍ أربع، ثوبكِ الأبيض المشجَّر الضيق في أعلاه يخنقُ نهديكِ النافزين ويتسع نزولاً عند خاصرته كاشفاً عن ساقين ملساوين كالشمع. من منّا لا تُغريه صورة كهذه؟! سوف يُحدِّثُ نفسه: أنا لا أعرفُ تلك التي تبدو على معرفة جيّدة بي!

يطولُ صمتكِ وأنتِ تجولين بناظريكِ في المكان مُتفحّصة؛ غرفة النوم والمطبخ والحمام. تتلكئين قبل أن تُفضي. شُقتك بلا أبواب عداً هذا. تقولين وأنتِ تُشيرين صوب باب المدخل. وجدتها هكذا منذ أمس. يُجيئكِ. تنهضين. تحُثِّين خطاكِ مُتهادية كأنما تتحقّقين من صِحَّة المكان. تتضوُّعُ غُرفة الجلوس برائحة يئثها جسدك؛ حِناً وريحان. تمشين ببطءٍ ثلّقين قدماً أمام أخرى بحذر، كأنما تسيرين على جبلٍ مُعلّق. تقفين في الممرِّ أمام خزانته الخشبيّة العتيقة. لا تلتفتين إلى قصعة خزفية مُهشّمة تحت قدميك. تفتحين بابي الخزانة. تُحملقين في محتوياتها. تتلمسين جديلتين معلّقتين في الباب من الداخل. تعبين بكيس شبكيّ يَغصُّ بكريات زجاجية. تمرّرين نظركِ

بين قماطين، وردي وسماوي الزُرقة، تتفحصين محتويات الخزانة؛ مصاصتي أطفال وحجلين؛ وردي وأزرق. تزيحين جرساً ذهبياً صغيراً، تتاولين منديلاً. تفكّين عقده وتطمئنن إلى وجود تذكّار قديم بلون شفّيك أهديته له. تطبقين باب الخزانة ثمّ تختفين في غرفة نومه. يتسلّل صوتك عاليًا. لا ستارة لناذتك! يرفعُ صوتهُ يجيئك. هل من الضروري أن أكرر إجابتي؟ تردّدين. لا، لأنك وجدتها هكذا منذ أمس. يفلت ما يُشبّه ضحكةً من أنفه. بدأت تفهمين. تُجيبينه على الفور. وأنت؟ يجفل مُسائلًا: إلام ترمي بسؤالها؟ أبدو وكأنني في لعبة لا أعرف قوانينها. يتردّد قبل أن يسأل. أنا؟ ماذا بشأنني؟ تتحكّمين بصوتك مُتّحِنة. متى ستفهم؟ يلوذ الجبان بصمته.

تمكين وقتًا غير قصير في غرفته، يتبعك يستطلع سبب بقائك صامته هناك. يلفيك واقفة تُسندين كفّيك مبسوطتين على زجاج النافذة نظرين إلى البعيد، كأنك أزرق بصورته الأنثوية يتحرّى أوبة الزواجل. تميلين بجذعك تُديرين رأسك إليه. أين فيروز وصغيريها؟ يضمّ ساعديه إلى صدره. تبدين وكأنك تعرفين كلّ شيء! تستديرين. تُسندين ظهرك إلى النافذة. أنا لا أعرف، يبدّاني رأيت. تدفّلك ملامح حيرته لأن توضّحي. ورأيت الذي رأى. تنظرين إلى الأرض وجلة. تلمحين بُندقية صيدٍ هوائية إلى جوار قدمي عِرزال. تقولين بنبرة راجية. أنت لم تقتلها. يُطرقُ برأسه ينظرُ إلى البندقية. حاولت ولكن. تتقدّمين نحو الطاولة الصغيرة، تتاولين كوب قهوته الفارغ منذ أمس. لم تُعدّ قهوتك اليوم! يرفعُ ذراعهُ بين وجهه ووجهك. احترقت كفي اليوم بماء القهوة أثناء تحضيرها. يقول ثمّ ينفض رأسه

وقد تنبّه. آه نسيت أن أسأل! هل تشربين شيئاً؟ تومئين برأسكِ نافيةً وابتسامتك تدلّ على لا شيء. هذا غريب! تقولين وأنتِ تُحدّقين في آثار حروقِ كفّه. يُواري كفّه وراء ظهره. لا أدري ما الغريب الذي تعنين، الغرابة تُلَفُّ كلَّ شيء هنا مُتَذ. تُقَاطِعِينِه. مُنْذُ أَمْس! يَهْزُ رأسُه يُوافِقُكَ. تجلسين على حافّةِ سريره. تقولين والريبة على وجهك. شخصٌ آخر حُرِقَتْ كفّه نهارَ أَمْس. تنظرين إلى رأسِه ساهمة. لكِ صلعةٌ تشبّهُ صلعته بالمناسبة. تُمعنين النظر فيه كأنه يُذكركِ بشخصٍ ما. أنتِ تشبّههُ كثيراً. يقتعدُ عِرْزال الكرسيّ الخشبي، تفصلُ بينه وبينكِ طاولته الصّغيرة. يُبحِلُكِ فيكِ ممتعضاً. أين الغرابة في أن يحرق أحدهم كفّه؟! فليحترق هو والعالم كله! يتحدّث المَغْفَلُ عن العالم كأنه يعرفُ شيئاً عنه. تَسِسُ حَدَقَتَاكِ. عِرْزال! تصيحين به. تُردفين. أنا أتحدّثُ عن أحدٍ يهْمُكُ أمره. تتداركين. أعني يهْمُهُ أَمْرُكَ. يُطلِقُ زفرةً طويلةً يكادُ يتبعها بردٌ صارمٌ لولا محبة يقرؤها في ملامحك تُلَجِّمُهُ. يتفكّر في حدود وعيٍ منحته إياه: أنا لم أتعرفَ إلى أحدٍ يهْمُهُ أَمْرِي. في الحقيقة أنا لم أتعرفَ إلى أحدٍ بالمطلق! يُسند ذراعِيه إلى الطاولة. يدنو برأسِه إليك. اسمعي! لا وقتَ لديّ لحلّ الأُحْجِيّات! يُقْلِقُهُ حُزْنٌ يُغْشِي ملامِحَكِ بِلَوْنِه على نحوٍ مُفاجئ. تنظرين إليه بعينين تكسوهُما لمعةٌ حمراء. تبدين وكأنكِ طيبة جاءت لتخبرني بإصابتي بمرضٍ ما! يقولُ لكِ وتومئين برأسكِ نافيةً مُطمئنة. يُخيفُهُ صمتُكِ، على أن كلاماً تُخفينه يبدو مُخيفاً أكثر من الصّمتِ عن قوله. أنا لستُ طيبة، ولحسنِ حظِّك أنه لم يتليك بمرض. أنا جئتُ رسالةً لأعرف منك ما تريد ولأُخْبِرَكَ بما ينبغي عليك فعله.

تُلقين كلماتك دُفعةً واحدة. يرتبك. يُسند ظهره إلى ظهر مقعده. رسالة؟! أنا لا أريد شيئاً! ثم من هذا الذي أرسلك إلي؟ تنظرين إلى الأعلى من دون أن ترفعي رأسك. يرفع رأسه إلى السقف وقد بدا شرخه أكثر اتساعاً من ذي قبل. أنا أنظرُ إليكما من هذا الشرخ. هو يعرف شيئاً لا يُريد معرفته. تهمسين. هو، سقفتنا الآمن، هو من أرسلني. تبدين له مجنونة وهو لا يُريد أن يكون فظاً معك. يحتدُّ صوته غصباً عن إرادته. أنا لا أفهم شيئاً في الحقيقة! تستفزك كلماته، أو بالأحرى كلمته الأخيرة. تنهضين عن طرف السرير تدنين إليه. لا يجوز لك أن تتحدّث عن الحقيقة عِرزال! يهْمُ بالنهوض من مقعده. تُسندين كفك إلى كتفه. تُجبرينه على الجلوس. ابقِ جالساً من فضلك. تجلسين أرضاً على ركبتك. تنظرين في وجهه بشفقة كأنه يموت بعد قليل. تُربِّكه نظرتك وأنت تهزّين رأسك آسفة. لا تنظر إليّ هكذا! أنت لست حقيقياً عِرزال! سوف يُحلقُ فيك شاخِصاً. تُداهِمُه نوبة ضحكٍ مجنونة. لا يتذكّر أنه ضحك بهذا القدر في حياته منذ أمس. تستمرُّ ضحكاته حتى تتوقّف مُخلفَةً ابتسامة بلهاء على شفّته. لا تُبادلينه الضحك ضحكاً ولا ابتسامة. جامدة صِلدة تُحملكين في وجهه مُشفقة. يصيح بك. هذا يكفي! تُمسكين برُكبتيه تعتصرنهما. تترقرق أدمُعُك. تندفعين مُفضية. اسمعني أرجوك! مثلما قلت لك، ولكن اطمئن، أنت لست وحدك! تبسمين على نحو مُغاير وأنت تمسحين دُموعك بظاهر كفك، ابتسامة ذات معنى هذه المرّة؛ ابتسامة حُزنٍ مرير يشوبها قلقٌ شفيفٌ إزاء ردِّ فعلٍ مُحتملٍ من عِرزال. أنا أيضاً لستُ حقيقة على أيِّ حال، كلانا، كلانا عِرزال

شخصية في رواية كتبها سقفنا الأعلى، مؤلفنا. احتارَ في أمرِكَ في اليوم الخامسِ في النص، وقتَ طال وقوفُكَ على دَكَّةِ النافذةِ مُرَدِّداً غير قادرٍ على القفز! لماذا عِرْزال؟ لماذا لم تقفز كما أرادَ لك؟! يُنصِتُ إلى إفْضائِكَ وهو يحكُّ صلعتَهُ. أنا، أنا حقيقيٌّ كالشَّمْسِ قُطْنة! كصلعتي هذه التي أَلْمَسُها بأطرافِ أَصَابِعِي! تدفَعُكَ إشارتُهُ إلى صلعتِهِ لأن تتنَهَّي. تُضَيِّقِينَ عَيْنِكَ تُمعِنِينَ النظرَ في ملامِحِهِ. هُوَ كَتَبَكَ على هِائَتِهِ! يصرخُ بِكَ. كفى! تستقيمِينَ واقفةً تُمسِكِينَ بِكَفَيْهِ تَهْزِينَهُ. عِرْزال افهم أَرْجوك! يمضي نحو النافذةِ ينظرُ بعيداً وهو يفهم تمامَ الفهمِ ما تقولين وينكره. علَّمَتُهُ المذْكَراتُ أن أزرق البغيضَ على حقٍّ دائماً، وإن خالَفَ كلامه ما يشتهي. تعلَّمُ ألا يثقَ ببصيرةِ التي أحبَّ قراءتها وهي تبيعُ وهماً مُستحيلاً يطيبُ لَهُ تصديقه، بيدَ أنه يكرهُ أن يقتنعَ بفكرةٍ غريبةٍ تُفسِّرُ غرائبِ الأشياءِ مِنْ حوله. دعيه يوغل في تفكيره ساهماً فيما وراء النافذةِ قُطْنة. ذاكرةٌ معطوبةٌ لا تُسعِفُهُ لفهم كتاباتٍ مهمورةٍ بتوقيعه لا يتذكَّرُ زمنَ حدوثِها، وخزانةٌ مَلَأَى بِأَشْيَاءٍ لا يفقهُ سببَ وجودِها. يُحدِّثُ نفسه ضَيِّقَ الصَّدْرِ: هذه الفتاةُ تقول شيئاً أزرق. أزرق كالحقيقةِ التي لا يجبُ أن أتحدَّثَ عنها لأنني، وفقَ قولِها، لستُ حقيقياً! يسألكِ مُستنكِراً ووجههُ شَطْرَ ما وراء النافذةِ. هل تؤمنين بما تقولين قُطْنة؟! نحن حقيقيون! هُوَ.. هُوَ غير حقيقي، غير موجود! نحن من صنعه على هِائَتِنَا! تُفْلَتِينَ ضحكةَ تهكُّمٍ. من اليسير جدًّا عليه أن يدفعَكَ إلى خارجِ شُقَّتِهِ. يطرُدُكَ ويُحذركِ من العودةِ ثانية، لكنه يدري إن هُوَ فعل، فليس بمستطاعِهِ نسيانَ ما قلتِ. تُدَاهِمُهُ رغبةٌ بمعرفةِ المزيد، ليس مُهمًّا أن تكوني

على صواب، أو أن يكون كلامك منطقيًا، لا منطق في هذا المكان في ساعة تأمل بين فكرة وتدوينها على الأوراق. لا شيء يهّمه، ذاكرته التي يشكُّ بها، وزمنه المبتور الذي يجهل آلية مرورهِ، وأحلامه الليلية التي عجزَ خياله عن تفسيرها، ومناكفته لتلك الحمامة التي لا يعرف سببًا لمحبتها ومقتها لها في آن واحد. لن يقوى عزّال على الالتفات نحولك وأنت تقفين وراءه. ماذا يريد مؤلفكم المزعوم مني؟ تُجيبينه مُستَفَزّة تُكرّر ما جاء في سؤاله. مؤلفكم؟! يودُّ أن يلتفت إليك ولكنه لا يريد لعينيه المخضّلتين أن تُمعنا بفضح مشاعره أكثر. يمكُثُ يحدّق في الفراغ الأزرق يتحرّى إجابتك. يلفك الصمت. يُرسل نظره وراء امرأة تحمّل رضيعًا تعبرُ الشارع، رجل يمشي ضحبة كلبه على الرّصيف، وأطفال يصيحون ببائع مثلجات يلوخ في البعيد. يُشير بذقنه نحو ناس الشارع. وأولئك؟ تُسندين كفك إلى كتفه. تهمسين عند أذنه. مؤلفنا كلنا، كاتبنا الذي رأى كل شيء. سوف يرفع رأسه إلى السّقف يحدّجني بنظرة كارهة أدري. يصيح بي. هاي أنت! ترتعش كفك على كتفه. يُتم. أن ترى كل شيء لا يعني أنك تعرف أي شيء ولا يعني أنك قادرٌ على فعل شيء! لا بأس قُطنة، هذا المغفل يقول أشياء حقيقية في بعض الأحيان. تضغطين على كتفه وتهمسين. عزّال احذرا! يستدير ينظر إلى وجهك. يرفع كفه اليسرى يلمس وجهك ويمسح بلبل وجنتيك. ألسنتي تقولين إنه أرسلك ليعرف ما ورائي؟ تهزّين رأسك مؤكدة. يسألك. ما باله لا يعرف؟! ادفعي كتفه برفقٍ قوديه إلى السرير. اجلس عزّال. سوف ينصاع لك. اهمسي. أنت أسهل مما تصوّرت. ما دُمت تقبل الفكرة!

يرفع حاجبيه يستوضح. يُفضي لِدُخِيلَتِهِ: هذه الفتاة تُجيد الابتسام على نحوٍ مُحبَّب. لا تُفَوِّتي لحظة سَكِينَتِهِ. واصلي ما توقفت عنده. فكرة أن نكون كلُّنا؛ أنا وأنتِ عِرْزال والحمامة والناس الذين يطوفون الشَّارع في الأسفل، كُلُّنا لا نعدو كوننا وهما داخل نصٍّ لا أحد يدري عنه إلا كاتبه. تستدرकिन. كاتبنا. يشيخُ بوجهه صوب النافذة لا مهرب له من غزو حُجَجِكَ سواها. امسكي بذقنه بطرف أصابعك. أديري وجهه إليك. سوف يقع نظره على صدرك يأخذه إلى صحو سماء قرأها، تجرّه شاماتك الأربع إلى زواجل أزرق تُحلّق مُبتعدة أو عائدة، أو تأخذه إلى إخوة يفتقدُهم. خُذي دفتر المذكرات من الطاولة القريبة واسنديه إلى فخذه ثم اجلسي على رُكبتك أرضًا. اطلبيه أن يتصفَّح. اقرأ. يُجيبك. لا رغبة لي بقراءة ما أحفظ. يومئ لك رافضًا. كرري. اقرأ عِرْزال. يدفعُ بالدفتر إليك غير راغب. تُطبِّقين كَفَيْكَ على كَفَيْهِ تُبْقِين الدَّفْتر مفتوحًا على فخذه. اقرأ أرجوك وحاول أن تتذكر، ما الذي أردتَ قوله في مذكراتك هذه حتى لو لم تكن كاتبها؛ الحمام الزاجل وبصيرة وأزرق وفيروز وزينة ورحال وكل شيء، اقرأ وساعدنا على الخلاص من مصير الدُّرج السُّفلي، عِرْزال! تذكر أرجوك واجعل لهذا النص الذي نعيشه نهاية! سوف تعتريه رعشةٌ يفشلُ في كبحها. ينظرُ إلى عينيك يستمدُّ ما يعينه على ضعفه. ربَّتي على ساقيه. أخبريه. نحن في برزخ بين فكرة في رأسه وتدوينها بشكلٍ منقوصٍ على الورق. سوف يُمِسِّكُ الدَّفْتر يتصفَّح أوراقه كيفما اتفق. يقرأ فقرة. يقفزُ إلى أخرى. يتجاوز صفحة. يُدركُ الأخيرة. يعود إلى الأولى، ثُمَّ المنتصف. أنا أحفظُ كلَّ هذا ولكني

لا أعرف ما الذي يعنيه ولماذا. سوف يصرخ. أنا لا أتذكر شيئاً.. أنا لم أكتب شيئاً.. لعلّه هو.. هو الذي فعل! هو الذي يرى كُلَّ شيء ولا يعرف أيَّ شيء وغير قادرٍ على فعل شيء! سوف تنظرين إلى السَّقْفِ نظرةً سريعةً مُرتبكة. هذا صحيح، ولكن هل لك أن تهدأِ عِرزال؟ هذا جيد، جيدٌ جداً، دعنا نتفق على وجوده أولاً. يرفع وجهه إلى السَّقْفِ الذي اتسعَ شرخه واتَّخذَ شكلاً آخر؛ شكل ورقة شجر، عين أو رُبَّما فم، العين القديمة الناضرة إلى بصيرة، الفم الصامتُ أبداً إلا عن قولٍ لا يفقهه سواها. يهبطُ نظراً عِرزال إليك. يتراجعُ عن قوله إنني أنا، سقفكم، وراء ما كُتب في الدفتر. هو لم يكتب شيئاً، هو غير موجود أصلاً! انهضي قُطنة عن الأرض واجلسي إلى جواره على السرير. انظري إليه. يمشطُ ببصره سطورَ الدفتر المفتوح في حجره. ينتهَدُ مُستسلماً. أنا لا أتذكر. تومئين له مُتفهمة. لا تدخري وقتاً لإقناعه. هل تتذكر متى وكيف تنام كلَّ ليلة؟ سوف ينظرُ إلى وسادته يُربِّكه سؤالك. عِرزال لا يريد أن يُجيب نفيًا يؤكدُ مزعمك. أنا أتذكر متى وكيف أصبحو كلَّ صباح. تضحكين بيأسٍ إزاء إجابة المتذاكبي. أنت تتهرَّب من إجابةٍ لستَ أحتاجُ إلى سماعِها! أنت لا تتذكر نفسك كيف أو متى تذهب إلى السرير كلَّ ليلة، لأنه لم يكتبك تنام، بل إنك لم ترَ الغروبَ في حياتك ذات الأيام الخمسة عدا مرةً واحدةً يومَ أطفأت النور كي لا تُفزعَ فيروز! كوني صارمةً في حديثك قُطنة. واثقة. لكِ قُدرةٌ خارقة على إخراسه. تضطربُ عيناه مُعترفاً في نفسه: أنا بالفعل لا أتذكرُني أندسُ في سريرِ ليلاً! يدفَعُك صمته لأن تستطردِي. أنت لا تتذكرُ إلا بضعة أيام مضت كلها يومَ أمس، لأنك

لم تكن شيئاً قبل ذلك. يُمسكُ بدفتر المذكرات يلودُ به. يُلوح بالدفترِ أمام وجهك. ولكنني موجود هنا، كنتُ صغيراً، كل شيء مكتوب في هذه الأوراق! أسكتيه بسؤالك قُطنة. منذ متى؟ سوف يتلکأ مُحاولاً أن يُجيب وفق ما يرغب ولكنه لن يقوى على مُجاراة رغبته. يُجيبك بما يشبه اعترافاً. أمس. تُطرقين كأنما يُتبعك النظر إلى وجهه. افص له بكل شيء لحظة ضعفه. أنت لم تكن شيئاً قبل أمس عززال! افهم! تشيأت في هذا النص الذي كُتب في اثني عشرة ساعة؛ نصفها أمس ونصفها الآخر اليوم. سوف يُطبِقُ فكّيه كي لا يُجيبك زاعقاً. يقول ضاعطاً حروفه. غيبة! أنا وأنت فيروز وأزرق وبصيرة! ثم يعتصر ذاكرته يستحضر الأشياء والكائنات. أفعى الدار وحمامها وزينة ورحال والبيت العربي القديم وصحراء الجنوب والبحر وكل ما يجري وراء هذه النافذة كُتب في اثني عشرة ساعة! هه.. هذا غير حقيقي! تنهضين تُديرين له ظهرك. لا داعي لأن أذكرك؛ أنت غير الحقيقي في هذا النص اللقيط! كنت سهلاً قبل قليل، صرت تُعقد الأمور عززال! أنت مجرد شخصية ورقية لا تعدو كونها وهماً في رأس مؤلِّفنا، كُفَّ عن عنادك عززال! سوف يُجيبك. أدري ولكن! لا! هو مجرد وهم في رؤوسنا! ارفعي صوتك قُطنة. أجيبيه. هو من أوجدنا! يرفع صوته. نحن من أوجدّه! تستديرين تنظرين إليه مُبقية على صمتك تترقبينه. هاتي دليلاً واحداً على وجوده! سوف يُشير إلى رأسه مُردفاً. خارج هذا الرأس! حاذري أن يُضعفك سؤاله الخبيث. أشيري بسبابتك نحو صدره. سوف أفعّل إن جتني دليل على أن ما هو مدوّن في مذكراتك نتيجة أحداثٍ مرتت بها حقاً!

اقتربي صوبه أكثر. عززال! ليس بالضرورة أن تكون ذكرياتنا نتيجةً لحدثٍ كان! لاحظي ضعفه قُطنة. سوف يصمتُ صاغِرًا. يصرخُ في دخيلته. نحن ندورُ في دائرة مفرغة. حديثنا يبدأ من حيث ينتهي! كأنما تنصتين إلى ما يجولُ في خاطره. تعجيبينه. اطمئن، لم يحن أوان النّيه في الدّائرة المفرغة بعد! ولكننا نمضي إلى هذا المصير حتمًا إن أصررتَ على عنادك! تيهك، أو بالأحرى تيهنا جميعًا سوف يكون تيهًا أبديًا إذا ما لُفنا الظلام في الدّرج السفلي! سوف يفتعلُ ضحكةً يتوسّل بها تبديد ارتبাকে. لا وجود لذلك الدّرج! يمتقعُ وجهك. أنت تنكر! يُجيبك مُتتقيًا كلماته بحذر. الإنكار وجه آخر للتسليم، إنكارك وجود الشيء تسليمٌ بعدم وجوده! أفلتي ضحكةً ولا تُشعره بغیظك. أنت تهذي! أشيري له نحو المقعد. اجلس عززال. تجلسين أمامه على السرير ثانية وقد بدا أن صبرك يوشك على النفاد. لا تيأسي. أنا معك قُطنة، أنا قريب. أخبريه. أنت أمام خيارين لا ثالثَ لهما؛ إما أن تقفزَ من نافذتك هذه لتجعلنا نُكمل النّص من بعدك، أو أن تُخبرني بِمُرادك من وراء تمديد أجلك ومُخالفة قدرك، افعل شيئًا لعلنا نمضي نحو صفحة جديدة. لن يُحير جوابًا، فـ عززال لا يعرف سببًا لإصراره على عدم الموتِ انتحارًا أو بغير انتحار عدا أنه يُريد أن يبقى على قيد حياةٍ لا يعرف لها معنى! يُريد أن يُدركَ فهمًا لكلّ أسئلته. مسكينٌ عززال، لِزامٌ عليه أن يهرب من فرضية الكاتب والمكتوب هذه وإن كان إيمانهُ بها غافيًا في داخله. سوف يقول. قلتَ لي إن اسمك قُطنة! توأمين موافقة. يستطرد. كان لديّ معزةٌ بربرية بيضاء تحيلُ الاسم ذاته، اعتدتُ في طفولتي أن. قاطعيه قُطنة.

انسفي إيمانه بماضييه. طفولتك المزعومة في دفترِكَ عِرْزال! نحن الآن خارج النصِّ في ساعة تأملٍ مؤلِّفنا الذي منحنا فرصة أن نُشاركه الكتابة! يصيحُ بكِ بكلِّ ما أوتي من غضب. يا لِسَخائِهِ ويا لِغِباءِ حِجَّتِكَ! وإن افترضتُ إيماني بوجوده يا. لا تُمهليه يُكْمِل. أنت مؤمنٌ بوجوده ولكنك. سوف يُقاطعكِ. أنتِ مُغفلةٌ تُشبهين بصيرة! سوف تضحكين. بصيرة من؟ يفترُّ عِرْزال أمام فائضِ ثِقَتِكَ. يتلكأُ يُجيبُ بغير يقين. بصيرة العجوز السَّاكِنة أسفل السُّلَّم. تُجيبينه بما يُشبه عَبيّا. أنت تؤمن بوجودها إذن! يتفضُّ كأنما يتبرأ من تُهمة. لا! تهزّين رأسكِ. صرتَ مثل أُرْزق. يُجيئكِ. أُرْزق لا يكذب! تبسمين تفتعين هدوءًا. ولا أنا. ترفعين وجهكِ إلى السَّقْف تنظرين إليَّ بأسف. تُطرقين قبل أن تستديري ماضية إلى خارج غرفتي. حسن! أعودُ لِمَن أرسلني خائبة أخبره بفشلِ مُهمَّتي! يصيحُ بكِ. صبراً! تلتفتين إليه ودلالات الرضا على وجهكِ. يسألكِ وقد تملَّكتهُ حاجتُهُ لبقائكِ. إن قلتُ لكِ إنني لا أملك حِجَّة لوجوده أو عدمه، ولكن لا تطيبُ لي تلك الحياة التي ينبغي لي عيشُها وفق شروطٍ من تدَّعون بأنه يكتُبني! تهمسين مُتحرِّجة. لا تكن أنانيًّا عِرْزال! يتفضُّ يُجيئكِ مُتسائلاً. وهل الإيثار أن أكون قريباً لراحةِ باله واستمراركم من دوني في النصِّ الذي تزعمين؟! تهزّين رأسكِ بحزن. أو أنك تُبرِّز لي سبب إصرارك على البقاء. يُجيئكِ بصوتٍ واثقٍ كأنما أُرْزق يندسُّ في أحشائه يُرسلُ صوته عبر حنجرة عِرْزال. اسمعي قُطنة! أنا أبحثُ عن معنى! يرفعُ رأسه ينظر إلى السَّقْف. يستطرد. معنى لِكُلِّ ما يجري هنا. على افتراض أن ما تقولينه بشأن ذلك الروائي صحيح، ماذا

تعرفين عنهم؟ تُكرّرين آخر قوله مستفهمة. عنهم؟ يوضّح عِرزال. الروائيون قُطنة. تُجيبين صاغرة. أنا لا أعرف، هم العارفون! صوت أزرق في داخل عِرزال يضحك. تتداركين. لا شأن لي بالروائيين الآخرين. أنا هنا رسولة ممّن كتبني؛ كاتبنا الذي وراء السّقف مانح الحياة الذي يرى كلّ شيء. يومئ لك أسفاً. حسن، لو هو يراني قُطنة، هو لا يعرفني، لأنه يظن أنه أوجدني من عدم، أنا سأعرفه لأنه أوجدني على شاكلته! هل تفهمين؟! تُشيرين برأسك نافية. يواصل الوجدُ إفشاءه. هو لا يدري إنني هو. أنا أدري. تلتصقين به ترتعشين. إياك أن يُقنعك بجنون أفكاره. نبّهيه. أنت تقول أشياء غريبة عِرزال! سوف يُحيطُ جسدك بذراعيه يهمسُ بأذنك. الروائيون مرضى، يُنفسون عن معاناتهم ويستزيدون بالكتابة تعويضاً لنقص في نفوسهم! يُزيحُ ذراعيه عن جسدك. يُداهمُك ضعف قُطنة. لا بأس. ولكن احذري! تقولين له. هذا كثير عِرزال! يسألك. كثيرٌ بحقه؟ ثمسكين بِقمة رأسك تُجيبين. لا. هذا كثيرٌ بحقّ هذا الرأس! تنفضين رأسك مُزعجة. أنت تهذي مُجدّداً. ادفعيه. حاولي الخروج. يُمسكُ الحقيزُ بذراعكِ الملساء. أي سُلطة تمنحُ كاتبكم المزعوم الحق بأن يكتُبنا وفق ما يريد؟ تُفلتين زفرةً طويلةً. تستديرين. تتقابلان وجهًا لوجه. أخيراً! كنت للتوّ تفتعل عدم إيمانك بدوره، ثم صرت تؤمن كارهاً يدفعك سخطك! تمطّين شفتيك. قطعنا شوطاً ليس بالهين. نظرين إليه عاقدة حاجيك. ما بالك تُحملكِ بي هكذا؟ هو لا يزال ينتظرُ إجابة. يتجاوز قولك يُكرّر. أي سُلطة تمنحه أن يكتُبنا وفق مزاجه؟ تنهّدين قبل أن تُفضي صارخة. القلم! كأنما لطمتِه على وجهه

بكلمتِكَ وقتَ أجبْتِ. سوفَ يستقيمُ الغبيُّ واقفاً ساهماً يذرُعُ غرفتهُ جيئةً وذهاباً يُردِّد. القلم. القلم. القلم. يقلِبُ المكانَ يبحثُ عنه في درجِ الطاولةِ الصَّغيرةِ إلى جوارِ السَّرير. في خزانةِ الممر. على طاولةِ القهوة. لا شيء! اكْدي له قُطنة. لن تجدهُ عِزال! سوفَ تبدو الشفقةُ في ملامِحِكِ أدري. يُربِّكُ قولك. يتحسَّرجُ صوتك. أنتَ لا تملكُ قلمًا واحدًا في شَفَتِكَ! سوفَ يُطبِّقُ قبضته على دفترِ مُذكِّراتِه يرفعهُ أمامَ وجهك يُبرهن. توُمِّين له بحزن. لا داعي لأن نُعيد الحديثَ عِزال. أنتَ لم تكتبِ ماضيك قط. هو من فعل. سوفَ يرفعُ رأسه إلى السَّقْفِ يصرُخ. أريدُ قلمًا! تقتربين مِنْهُ تهمسين. اخفضِ صوتك! تَدُسِّين أصابعك في صدرك. تَتَسَّعِ عيناه يسأل. ما زِلتِ تحتفظين بالذِّمِّرم في صدرك؟! تعقدين حاجِبَكِ استفهامًا. يُردِّفُ المسكين شارِحًا. تلكَ القطعة النسيجية التي تُشبهُ القرفة. لا تُعيري قوله اهتمامًا قُطنة. اخرجي القَلَمَ من جيبِ صدرك وناوليه. سوفَ يسألك. من أين لك؟ تُسَكِّتينه. لا تسأل! مثلكَ أنا لا أدري، في برزخنا هذا ساعة تأمُّله لا قوانينَ لشيء، هو مَنْ أوجدَ القلمَ في هذه اللحظة لعلَّكَ تكتبُ في دفترِكَ ما فاتَه أن يكتبه! السَّعادةُ التي سوفَ تغمره على نحوٍ مُفاجئٍ تدفعُهُ لأن يُحيطك بذِراعَيْهِ يُعانقُكَ. فليؤمِّنْهُ هوُ بأنِّي سوفَ أكتبُ غَدَي إذا ما آمَنْتَ أنا بأنه كتبَ أمسي. تنتفضين بين يديه. ماذا تفعل عِزال؟! يلتقيمُ شَفَتِكَ كأنما يروي عطشًا لازمهُ مُنذ ما قبلَ أمس. وأنتِ. أنتِ يا قُطنة تدفعين صدره بكفِّيكِ قبل أن تستقري هادئة. حرارةُ أنفاسك تُلَفِّحُ وجهه مثلَ سَمومٍ صُيوف البيت القديم. يُقَرِّبُ وجهه إلى سماءِ صدرك يُلثِمُ زواجلَ أزرق ومذاقُ

ريقك العذب في شفتيه. يُفْلِتُكَ الحَقِيرُ لاهِثًا. تُسْقِطِينَ نَفْسَكَ جالسةً على طرفِ السَّرِيرِ. عيناك مفتوحتان على اتساعهما تحمِلَينِ في الكهل. ما جئتُ لهذا الشيءِ عِزال! يستجمعُ كلماته خلال أنفاسه المتسارعة. لعلَّ ما حدث هو الشيء الوحيد الذي أقدمتُ عليه بإرادتي مدركًا. تومئين عاقدةً حاجِبَيْكَ تستوضحينه. يُجيبُكَ السَّافِلُ. تقولين إنه يمنحني فرصة أن أفعل؟ أن أقول؟ أن أعينه على إنهاء هذا النصِّ اللقيط الذي وُلِدَ بغير ما فكرة؟! تهزِّين رأسك موافقةً تؤكِّدين. يُلَوِّحُ لك بالقلم. سوف أكتبُ نصًّا يُخالفُ نصَّه اللقيط، نصًّا نسيبًا، أنسبه إلى فكرةٍ لستِ تؤمنين بها. تُضَيِّقِينَ عَيْنَيْكَ تتحرَّين إيضاحًا. إنها ثورة الشخصيات على مؤلفيها المفترضين! يجلسُ إلى جوارك على السَّرِيرِ. يُطَبِّقُ كَفَّهُ على كفِّكَ المرتعشة. من فينا يكتبُ الآخر ويُفْنِيهِ؟! تطفُرُ دمعة من عينك وأنتِ تنظرين إليه صامتة. لا تُصدِّقيه قُطنة. دعيه يهذي لعلنا ندرِكُ نهايةً لهذا النصِّ. يُقَرِّبُ وجهه إلى وجهك يدفعه سطرُ قرأه ذاتَ صبحٍ من صباحاته الخمسة في أوراق دفتره. يلعقُ دمعتك برأس لسانه. أنتِ مثل بثرنا المجنونة في وسط البهو، تمنحين ريقًا عذبًا أو دمعًا مالحًا بحسبِ مزاجك. تسري رعدةً في شفتيك. أنا لا أفهمُ شيئًا. يُجيبُكَ. سوف تفهمين. تنهضين تَهْمَيْنِ بالانصراف. أخشى أن تنتهي ساعة تأملِه. يُطَبِّقُ كَفَّهُ على ذراعك. لا قوانين للزمن في هذه الساعة شأن الزمن في أوراقِ يكتُبها. أو لستِ تقولين إن أحداث الأيام الخمسة التي مرَّت بي وكل ذاكرتي القديمة قد جرت في اثنتي عشرة ساعة؟! تهزِّين رأسك توافقينه. يُلَوِّحُ بالقلم أمام وجهك. سوف أخلِّصُه من مُعاناته وأكتبُ ما عجزَ هو عن كتابته!

يُطَوِّقُكَ الْوَعْدُ بِذِرَاعَيْهِ. أَمْهِلْنِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَاعَةً! يَتَشَمَّمُ شِعْرَكَ.
 يَلْتَمُّ عُنُقَكَ. يُطَبِّقُ قَبْضَتَهُ عَلَى يَاقَةِ ثَوْبِكَ الْوَاسِعَةِ. ادْفَعِيهِ بَعِيدًا قُطْنَةً.
 سَوْفَ يَقُولُ. أَنَا لَا أَتَوِي فِعْلَ شَيْءٍ. انْهَرِيهِ. انْظُرِي إِلَى السَّقْفِ
 وَتَذَكَّرِي..

خُذِي مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا تَمْنَحِيهِ أَيَّ شَيْءٍ!

* * *

عرزال

«ادفعني الباب!»

صحتُ بالفتاةِ الواقفةِ وراءِ البابِ توشِكُ أن تضغطَ زرَّ الجرسِ.
تأخّرتُ قبلَ أن تدفعَ البابَ على مهلٍ. أطلتُ برأسِها زائغةَ البصرِ
تُحَمِّلقُ فيّ وأنا وراءَ مكتبي جالسٌ أسنِدُ ساقًا إلى ساقٍ، وأديرُ قلمًا
بين أصابعي. عذراً! يبدو أنني في الـ. قاطعتها باسمًا. لست في
المكانِ الخطأَ قطنة. قطبتُ حاجبيها تستغربُ معرفتي اسمِها وأنا
الذي لا أبدو على الصُّورةِ التي تعرف. راحت تتلفّت كأنها تتعرّف
المكان، ولكن جِدّة المكان قد ألجمتها. أشرتُ لها نحوَ مقعدٍ أمامَ
مكتبي. تفضلي. نظرت إلى السَّقْفِ مُتَلَكِّئَةً كأنما تستنجدُ بمن يُفسِّرُ
لها طارئًا غَيَّرَ حدثًا كان قد رُسِمَ بعناية. تفضلي قطنة! كرّرتُ. جرّت
خطاها إلى المقعدِ أمامي. أنا عرزال، الرَّجُلُ الذي جئت من أجلِ
إقناعه بلُعبةٍ أنتِ نفسك لا تعرفين قوانينها! بهتت الفتاة. ضيّقت عينيهما
تتفرّسُ ملامحي. أمسكتُ بخصلةٍ من شعري. أشيب، ولكن الشيب
أفضل من الصِّلَعِ كما أظن! لم تبال. هبطت عيناها إلى كفيّ اليمنى
تبحثُ عن آثارِ حروق. باعدتُ بين أصابعي أحرّكها. كفّ سليمة!
انبرت تواصل تفحص المكان. كان ينبغي أن تكونَ على دَكَّةٍ نافذتكِ
ساعةَ دخولي! زفرتُ أجيئها. أحدهم سوف يكون.

دنوتُ بمقعدي إلى مكتبي. ربَّتُ على حزمة أوراقٍ على سطحه. هنا قصَّةُ مؤلِّفٍ فشلَ في الانتحار، هربَ من ماضيه بكتابة رواية ظلَ لحياته البائسة. رفعت رأسها إلى السَّقْفِ ثانية. طرقتُ سطحَ مكتبي بالقلم أثبَّتها. أنا السَّقْفُ قُطنة، أنا مؤلِّفُ أكتبُ قصَّةَ مؤلِّفٍ، وهذه ساعةُ تأمُّلي، لا تهدري وقتك! أطرقتُ تحجُّبُ وجهها بكفِّها. هو شأنك إن ارتضيتَ أن تكوني شخصيةً ورقيةً كتبها أحدهم. أنا لا يُرضيني هذا الهُراء. أزاحت كفِّها عن وجهها المصفرَّ كأنما فرَّت منه الدِّماء. أشرتُ بذقني نحو الأوراقِ على سطحِ مكتبي. من ارتضيته مؤلفاً سوف تتعرِّفنيها هنا! دعك من أحداث الصِّباحات الخمسة التي تعرفين، تجاوزيها إن أردت، هي صباحاته هو. اقري المذكرات التي أخفاها وحسب. ضربتُ الهواءَ أمامَ وجهي ضاحكاً إزاء صدمة شلَّت ملامحها. أعرفُ أن مجيئك مُحمَّلٌ بكلامٍ كثير. لا داعي لكلِّ ما أرسلتَ لقولِه فأنا أعرفُه. مطَّتْ شَفَتَيْها وهي ترفعُ كفِّها وتهزُّ رأسها وقد أخرجستها الدَّهشة. أردفتُ. أنا اخترتُ أن أكون أنا وفقَ ما أروم. كتبتُ نصّاً يخالفُ النصَّ اللقيط الذي تعرفين. حملتُ الأوراقَ بين يديَّ أقربُها إليها. واصلتُ. هنا نصُّ نسيب، أنسبُه إلى فكرة واضحة المعالم. انسِ أمرَ المؤلِّفِ، بن أزرق، الحائرِ في نصِّه في العهد القديم، المصّرَّ على أمسيه لأن حياته خالية من الأحداث بعد حادثة المرسى العظيمة قبل عشرين عاماً. قطَّبتُ حاجبيها. حادثة المرسى؟! أومأتُ مؤكِّداً. هذا ما سوف تتعرفين إليه في هذه الأوراق، قصَّةٌ جديدة في عهدٍ جديد. يحدثُ أن يكون المؤلِّفُ شخصيةً في رواية كتبها مؤلِّفٌ آخر. واصلتُ إزاء استغرابها. أنا من كتبه على هذا النحو؛ منوالِ بن

أزرق، يفتح الرواية بمشهد حيرته في مكتبه فجراً، يوم تعدى خمسين ساعات، يشكو لزوجته مآزقه الكتابي وتمرّد إحدى شخصياته، هه! فلنقل إنه أنا. عقدت قُطنة حاجبيها تستفهم. استطردت. أنا عرزال، ليس لي أب اسمه أزرق، وتجاوزت الخمسين منذ سنواتٍ بالمناسبة. لم أمهلها تنطق. ذلك الموتور منوال، المنسوب لأزرق، الذي كتبه مؤلفاً كاذباً حتى مقدّمته، يكتب فيها عن نفسه ما يشتهي، لم يجرؤ على الاعتراف بأنه انفصل عن منيرة، أو بالأحرى هي من قامت بتسريحه، منذ عشرين سنة! استدعاها في مقدّمة نصّه زوراً متخايلاً أمام قراء محتملين، يُحصى أعمالاً أدبيةً وسينمائيةً ومعارض تشكيلية لم يُقدّم على إنجازها قط! يدي لا تزال ممدودة إلى قُطنة بالأوراق التي كتبت. أنا كتبه على هذا النحو، مؤلف بالكاد بلغ الخمسين من عمره، عاش منها عشرين عاماً خالية من أي أحداث، حتى فاجأته ذات يوم حمامة! الحمامة التي حطت على دكة نافذته، كما لو أنها على خشبة مسرح، تؤدّي دوراً قام به قبل سنوات طوال. رأى ذاته من خلالها، ودفعته للانصراف عن كل شيء ليكتب نصّاً توسّل به مهرباً، ولكن النصّ قاده إلى نفسه من دون أن يعلم رغم زور مقدّمته. هزّت قُطنة رأسها وقد احمرت عيناها. أنا لا أفهم شيئاً.. عرزال ومنوال! تلقّفت الأوراق من بين يدي. من.. من فينا الكاتب ومن فينا المكتوب؟! استقمّت واقفاً. استدرت أخرج من وراء مكتبي أنقدّم نحوها. أنا الكاتب الذي خطّ قصّة كاتب عاجز عن إتمام نصّه، منوال الجبان الذي أخفق في محاولة الانتحار، ثمّ شرع بكتابة فشله، يتنكر لكل ما يكرهه في صفاته ويلصقه بشخصية يكتبها، لكنني أنا..

أنا الذي رأيتُ كُلَّ شيءٍ وأعرفُ كُلَّ شيءٍ. جلستُ على مقعدٍ أمامها محني الظهرِ أُسندُ مِرْفَقَيَّ إلى رُكْبَتَيَّ. ضَمَّتْ الأوراقُ إلى صدرِها واستقامت وإقفة شاحبة. أيمكنني الانصراف؟ هزرتُ رأسي أَمْنَحُها الإذن. أدارت لي ظهرها تسيرُ شارِدة الذَّهن. التفتت تنظرُ إليَّ من وراءِ كَتِفِها عند عتبة الباب. وأنا؟ من أكون؟ أجبْتُها مِن دون أن أنظر إليها. اقْرئي الأوراق التي في يديكَ، يُرضيكِ كونك ما جاء فيها؟ أو فاكْتُبي ما تشائين. مشيتُ نحوها. مددتُ لها كَفِّي بالقلم. تردَّدت قبل أن تتناوله بكفٍّ مُرتعشة وهي تقول: في الحقيقة.. قاطعْتُها واضِبعًا سَبَّابتي على شَفَتَيْها الدَّاكَتَيْن. الحقيقة أنه لا توجد حقيقة. أَطبقتُ قبضتي على قبضَتِها الممسكة بالقلم. هزَّتْ رأسها مُتفهِّمة. دَسَّت القلم بين نهدِها. تَلَفَّت في المكان ثانيةً قبل أن تسأل. ومن يضمن لي أننا لسنا في ساعةٍ تَأْمُلُه حتى الآن؟ من يضمن أن ما يجري في هذه اللحظة ليس فكرةً داخل رأسه في طريقها للتدوين؟ ضَمَمْتُ ساعِدَيَّ إلى صدري أجبُّها. لا أحد!

تَحَسَّستُ القلمَ المخفي في صدرِها. سألت. ماذا لو فشلتُ بكتابة ما أريد؟ نظرتُ إلى السَّقْفِ الخالي من الشُّروخ. إن كان يُرضيكِ دورُ الرِّسُولَةِ؛ اذهبي إلى شَقَّةِ منوال، دُفِّي جرس بابهِ، ادخلي وأخبريه بأنه مجرد شخصية مؤلَّفٍ ورقيَّة كتبها مؤلَّفٌ آخر. حاولي أن تقنعيه لأن يُنهي هذا المخطوط انتحارًا، تجنُّبًا لمصير الدُّرج السُّفلي. أطرقت تمضي في ظلام الممرِّ من دون أن ترفع رأسها إلى السَّقْف. لم تلتفت إليَّ وقتَ قالت. اذهب أنت واطرق بابهُ ما دُمْتُ المؤلف، وما دُمنا في ساعةٍ تَأْمُلُك كما تزعمُ.

غابت في ظلام الممر. صحتُ بها. خُذي مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا
تمنحيه أَيَّ شَيْءٍ!

* * *

العَهْدُ الْجَدِيدُ

صباحات متوالٍ بن أزرق

كَلِمَةٌ

.. كَمَثَلِ الْحَمَامَةِ الَّتِي يُؤْخَذُ فِرْخَاهَا فَيُذْبِحَانِ، وَتَرَى ذَلِكَ
فِي وَكْرِهَا، وَلَا يَمْنَعُهَا مِنَ الْإِقَامَةِ فِي مَكَانِهَا حَتَّى تَأْخُذَ هِيَ
فَتُذْبِحَ.

عبدالله ابن المقفع

مشروع رواية

«نصّ نسيب»



صباحٌ أوّل

119

«.. ثم أطبق أسنانه على طرف ثوبه وراح يركضُ كالمجنون!».

.. (*) على هذا النحو يستفيقُ منوال بن أزرق كلّ يومٍ منذُ أمس.

.. يفتحُ عينيه يتحاشى النظرَ إلى السَّقْف. يلتفتُ صوبَ النافذة.

الحمامةُ قريبة من هنا، أو أنها سوف تكون..

.. هل كانت الحمامة هنا يوم سقطت الستارة؟ ربما، ولكن متى؟

.. وفي اليوم ذاته، أمس، هائتَ طليقته فورَ استيقاظه: أشفاقُ

للصُغَيرين! تقطع المكالمة فور تعرّفها صوته: اركض يا جبان!

«انتظارُ ما يعود وما لا يعود»

كنتُ في الثلاثين من عمري، قبل عشرين سنةٍ من كتابة هذه المذكرات. أطوي ثوبي حول خاصرتي، أقعي على رصيفِ المرسى الصّخري. أتلفتُ بين المراكب الخشبية المتروكة بغير عناية، تتمايل راسيةً طافيةً فوق موج المدّ الهادئ. رائحةُ المرسى رائحتي منذُ صرتُ أمضي فيه نهاري الطويلة أنتظر عودةً مُحتملة وأخرى أمنحها احتمالاتٍ مستحيلة. الجوّ مُشَبَّعٌ برطوبةِ الأخشابِ والجبالِ وزَفَرِ أسماكٍ صغيرةٍ وكائناتٍ بحريةٍ عالقةٍ في شباكٍ صيدٍ مُهملة؛ خليط روائح يجزّ قِطْطَ

(*) لم ألحظ تغييرًا في أحداث الصباحات الخمسة إلا اسم الشخصية المحورية، فارتأيت الاكتفاء بإعادة قراءة بضعة سطور. (قطنة).

السَّاحِلَ وَنَوَارِسِهِ إِلَى الْمَكَانِ. أَصْوَاتُ أَلْفَتْهَا تَمْنَحُ الْمَرْسَى حَيَاةً كَأَنَّمَا تُحَدِّثُنِي وَتُبَدِّدُ شَعُورِي الْمَرِيرَ بِالْوَحْدَةِ؛ طَقْطَقَةُ أَخْشَابِ الْمَرَاكِبِ، وَهَدِيرُ الْمَوْجِ الْمُتَغَلْغَلِ فِي فَرَاعَاتِ صَخُورِ الْمَرْسَى يَدْفَعُ أَبَا الْعُرَيْسِ لِلخُرُوجِ مِنْ مَكَمَّنِهِ مُبْتَلًا مَمْتَعُضًا يَنْفُضُ جَسَدَهُ، وَمَوَاءَ الْقِطْطِ وَنِدَاءَاتِ النَوَارِسِ حَوْلَ وَلِيمَةِ شِبَاكِ الصَّيْدِ الْمَهْمَلَةِ. أَغِيبُ مَعَ لَهْفَةٍ عَقْلِي وَاضْطِرَابِهِ قَبْلَ الْغُرُوبِ فِي حِينَ زَوَارِقِ رَجَالِ خَفَرِ السَّوَاحِلِ تُمَشِّطُ الْمَكَانَ. أَفَكَّرُ فِي الْوَقْتِ أَحْسَبُهُ. يُدَاهِمُنِي قَلْقٌ. أَتَرَقَّبُ عَوْدَةَ سَيِّئَةٍ مِنْ أَفْرَادِ عَائِلَتِي غَيَّبَهُمُ الْأَزْرَقُ الْبَغِيزُ. أَطْمَئِنُّ نَفْسِي أَخَالِفُ عَقْلِي إِذَا مَا طَالَ غِيَابُهُمْ. كُلُّ مَنْ عَاشَ فِي الدَّارِ بِصَبْرٍ مِنْ أَهْلِهَا؛ حَمَامُ الدَّارِ لَا يَغِيبُ، وَأَفْعَى الدَّارِ لَا تَخُونُ. هَذَا مَا يَقُولُهُ هَاتِفٌ فِي دَاخِلِي وَلَدَهُ الْفَقْدَ قَبْلَ سَنَوَاتٍ طَوَالٍ، إِيْمَانٌ أَكْسَبَنِي إِيَّاهُ رَغْبَتِي فِي الْحِفَافِ عَلَى مَنْ أَحَبُّ مَذْكَبٌ صَغِيرًا. إِيْمَانِي الَّذِي لَا أَفْهَمُهُ. إِيْمَانٌ أَشْكُ فِي وَجُودِهِ لَوْلَا مَا يُشْبِهُ الصَّوْتِ الَّذِي يَجِيءُ مِنْ دَاخِلِي وَقَدْ ضَعْفِي، وَقَدْ أَحْتَاجُ إِلَيْهِ. يَجِيءُ مُطْمَئِنًّا إِلَى وَجُودِهِ إِذَا مَا هَدَّنِي الْخَوْفُ. يَجِيءُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ وَيَغِيبُ فِي صَمْتِهِ إِنْ أَنَا حَاوَلْتُ اسْتَنْطَاقَهُ غَضَبًا. طَالَ انْتِظَارِي مُقْعِيًا عَلَى رَصِيفِ الْمَرْسَى. يَنَاوِشُنِي شَكٌّ بِعَوْدَةِ غَائِبٍ، وَإِيْمَانٌ بِعَوْدَةِ غَائِبٍ. غَائِبٌ لَمْ يُسَمَّ أَجَلَ عَوْدَتِهِ، وَغَائِبٌ مُوعَدٌ أَوْبَتَهُ الْيَوْمُ مِنْ أَجْلِ غَدٍ يُوَافِقُ الذِّكْرَى الرَّابِعَةَ وَالْعِشْرِينَ لَوَفَاةِ أُمِّي.

منوال

.. يُغْمِضُ مَنْوَالُ عَيْنِيهِ عَلَى وَجْعِهِ، يَفْتَحُهُمَا حَمْرَاوَانٌ لَا مِعْتَانَ عَلَى شَقُوقِ السَّقْفِ مَتْنَهْدًا. لَوْ أَنَّكَ تَنْطَلِقُ! يَهْزُ رَأْسُهُ مُحَدِّقًا فِي دَفْتَرِ

مذكّراته على الطاولة الصّغيرة قرب السّرير.

«صوت ما ليس له صوت»

كنتُ في السّادسة يومَ هاجرَ والدي بصحبةِ إختوتي الأربعة الكبار مُخلّفاً زوجةً وولداً في البيتِ القديم. هجرةً بلا سبب، أو ربما يعرف الكلُّ أسبابها إلا أنا.

لا مؤنّس لوحدتي مع أمّي الواجمة، في بيتٍ صامت، إلا كائنات حوش الغنم، في مكاني الأثير. أتذكّر حينما رأيتُ الخادِمةَ فايقةَ هُناك، داهمني فزعي من تلك الغريبة التي ظهرت في دارنا على حين غُرّة، يعرفها الكلُّ ولا أعرفها، أعادها والدي مع ابنتها الصبيّة الحسناء لتمكّثاً معنا قبل سفره بشهور، وليعيش هو مع زوجةٍ جديدةٍ في بيتٍ جديدٍ على تلٍّ في جزيرةٍ ليست بعيدة؛ بيتٌ واسعٌ مُقابل البحرِ على حدٍّ وصفِ إختوتي. تركني، لصغر سنّي وحُسن حظي، عند أمّي في البيت القديم. أنا، إلى هذا اليوم، لا أدري سبباً لرحيل والدي على هذا النحو. إذعان إختوتي يشي بحجّة يملكها ولا يُصرّح بها. يرون أنه دائماً على صواب مهما بدا قاسياً في كثير من تصرفاته. أمّي التي أَسَمت إختوتي حمام الدّار أمضت أيامها تتحرّى عودتهم. «يعود المولاف»، كانت تقول. والمولاف هو الطائر، أي طائر يألّف المكان، يؤوب إليه مهما ابتعد. طال غيابُ إختوتي عن بيتنا وكأن الجزيرة لا تبتعد عن المدينة بضعة أميال. كنتُ مثلها أشتاقُ إختوتي الكبار. ظنّ والدي أنه، بإحضار فايقة وابنتها قُطنة التي تكبرني بعشر سنوات، قد قام بواجبه تجاه زوجةٍ وابنٍ ينوي هجرهما ولا أحد لهما في المدينة.

فايقة التي كانت ملك جدِّي، ثُمَّ ورثها والدي، مكثت في هذا البيت سنواتٍ طويلة قبل أن تُطرد هي وكُلُّ العبيد لسببٍ أجهله. أتذكّر فيما يُشبه الحلم، حينما كنت صغيراً جداً، بيئنا مليء بأولئك الصّامتين، في حوش الغنم أو البهو أو السّطح. لم يُجبنني أحدٌ لماذا طردهم والدي. بحث عن فايقة واشتراها بعد سنواتٍ الطّرد مع ابنتها. بدّت وحشية غريبة بالنسبة لي، أليفةٌ مألوفةٌ بالنسبة لأُمِّي. أعادها والدي قُبيل رحيله مثل أختٍ منسية تؤنس أُمِّي المسكينة وتُبدّد وحدتها. كنتُ أخافُ فايقة وهي الغريبة التي لا تُشبهنا. بهقاء شرماء، نحيلة فائقة الطولٍ منحت الحنّاء شعرها الأشيب حمرةً ناريةً كريهة. أسنانها الأمامية مفقودة تكشفُ عن لسانها بسبب شيءٍ يُشبه الجرح القديم على أرنبة أنفها، يُباعِدُ بينَ منخريها نزولاً إلى الشفتين، يفلقهما وقد جعل من إطباقهما أمراً مُستحيلاً. ذلك العيب الخلقي في منتصف وجهها يجعلها تُشبه الكائنات التي تحيك حولها العجائز قصصاً خرافية تمنعُ خروج الضّبيّة من البيوت وقت الظهيرة وقيلولة الآباء، وهذا ما يدفعني إلى عدم النظر إلى وجهها. كنتُ أخافها وأمقتها لقسوتها مع دجاجات البيت؛ تقتل كلّ يومٍ واحدة، تعزّزُ عنقها تُسيل دمها، وتنزع ريشها بقسوة. تُخالفني أُمِّي الشّعور. فايقة لا تتغيّر، أصيلة، مثل أفعى الدّار، شكلها لا يوحى بإخلاصٍ نكنّه لأهل البيت، عرفناها وفيّة وفاء أمّها لجدّتك. أخافتني أُمِّي بقولها أكثر، على عكس ما أرادت، فكرة وجود أفعى في الدّار كفيّلة بجعلني أزدادُ نفوراً وانقباضاً.

لا أنسى أبداً كيف كان والدي، خلال زيارته، يلتهم ابنة فايقة بنظراته كلّما مرّت من أمامه. وجدّته أكثر من مرّة في المطبخ أو حوش

الغنم يختلي بالفتاة. يهمسُ في أذنها بما لا يُسَعِفُنِي الهمسُ لِسماعِهِ. تَصُدُّهُ. يمضي غاضِبًا يَجُرُّ خَيْبَتَهُ وراءَهُ. لمحني ذات مرّة عند مدخل الحوش. قال وهو يُمرّرُ سَبَابَتَهُ أسفل ذِقْنِهِ. لو نطقت بكلمة!

ذات ظهيرة، حنّت فايقة الخطو، في حوش الغنم، وراء إحدى الدجاجات الهلّعة تحملُ سَكِينًا في يدها. نظرتُ في وجهها على غير دأبي. أرعيني منظرُ ابتسامةٍ على وجهها قصّدت بها أن تُطمئنّني. ابتسامَةٌ ضاعفتُ اتساع جرح شفيتها كاشِفَةً عن لثتها باهتة اللون ولسانٍ يظهرُ وراء فراغٍ خلّفته أسنانها المفقودة. أثرتُ دُعر الدجاجات بِضُرَاحِي. رحّثُ أجري إلى أسفل السَّلَمِ أَتَكَوَّرُ على ذاتي وصورةُ فايقة بنصل سَكِينِهَا اللامعِ وابتسامِهَا لا تُفارقُ خيالي. أَتَكُونُ تلك التي جاء بها والدي، عونًا لأمي، سافكة دِماءٍ تنوي إنهاء حياتنا ليخلو له البيت مع زوجته الجديدة إذا ما رَغِبَ في العودة؟! ألهذا السبب تركنا أبي؟! لا أدري. يصيرُ الرَّحِيلُ أخف وطأة لو أوجد له مُسوِّغًا، مَجَّانِيَةً الفقد تُحِيلُهُ جرحًا مفتوحًا في صورة سؤال.

كانت المرّة الأولى التي أنصت فيها إلى هاتفٍ في داخلي يُفضي؛ حمام الدَّارِ لا يغيب، وأفعى الدَّارِ لا تخون. انتفضتُ فرعًا وقت سمعتُ الصَّوتَ واضحًا يُشْبِهُ صوتي تشوُّبه بحّة. كنتُ لأؤمِّنُ بأنني من لفظ الكلماتِ لولا إطباقِي شَفَتِي. رحّثُ أَفَكَّرُ في مصدرِ الصَّوتِ مُطَمِّئًا إلى قوله، فهو قولُ أُمِّي بشكلٍ أو بآخر، ولكن أُمِّي ليست في الجوار. أغمضتُ عينيَّ بشدّةٍ أرهفُ سمعي مُحاولًا استعادة الصَّوت، لكنني لم أنصتُ إلى شيءٍ إلا ترديدَ أنفاسي المُتسارعة. كانت أُمِّي في حُجْرَتِهَا تَخِيطُ فتقًا في أحد أثوابي. ابتسمت عندما أخبرتها بصوتٍ

همسَ لي بتلك الكلمات. أشارت لي أن أقرب. قرصت خدي برفقٍ
تسألني بوجهٍ مُتعبٍ باسم. هذا صحيح، ولكن، صوت من؟ أبتقت
ابتسامتها تتحرى ردِّي موقنة بأنها مصدر القول. سكث قبل أن أشير
بسبّاتي إلى صدري. أخذها هنا. بهتت أمي تنظر في وجهي مُستغربةً
هاجسة. راحت عيناها تنظر إلى كلِّ شيءٍ إلّاي. تركت الثوب في
حجرها وألقت بالخيط والإبرة في غلبة حلويات معدنية إلى جوارها.
طوّقتني بذراعيها مُرتبكةً تضمّني بشدة. اسم الله عليك!

منوال

.. زُرقة السّماء تأخذه بعيداً عن فيروز إلى أمس. تبّاً لك يا أزرق
ماذا تُريد! يعقّد حاجبيه مُعاوِداً إمعان نظره في الطائر الرّمادي وراء
نافذته.

«انتظارُ أوبةِ الثّلاث»

أوشكت الشّمسُ على المغيب وقتٍ لاحَت في الأفقِ نقطةً
تقترب. قاربٌ صغيرٌ جدّاً يدنو إلى اليابسة مُسرِعاً، يُدويُّ مُحركه
بهديرٍ لا يتخلّف عن مواعده. يزورُ كلَّ عامٍ في أجّله. استقمتُ وإقفاً
على أطرافِ أصابعي مُشرئبَ العنق وقد فككتُ رباط ثوبي وأسدلته
على ساقَي. مشيتُ على مهلٍ حافئاً، أقطعُ اللسان الصّخري عُمقاً
في مياه البحر. وقفتُ على حافةِ رصيفِ المرسى أُحمِلُ في النقطة
السّوداء وقد اقتربت. هُوَ قاربٌ شقيقِي الأكبر. هجستُ لنفسي
أبشّرها: غادي. رحّتُ أحدثني: غادي الأسرع والأول على رأس

العائدين دائماً. سكنت النوارسُ وقتما دنا القاربُ بهديرٍ مُحَرِّكِهِ إلى السَّاحِلِ. راحَ غادي يلوّحُ لي بيده ويُشيرُ وراءَهُ نحو الأفقِ وقتَ ظهرِ مركبٍ أكبرَ حجمًا أبطأَ حركةً. ملأتُ صدري شهيقًا أردفته بزفيرٍ طويلٍ يصحبُ أسماءَ بقيةِ إخواني الذين هُم على متنه. رحْتُ أعدَدُ على رؤوسِ أصابعي: سفارٌ وعودٌ وربّاحة. إخواني الذين لو أحصيتُ أيامَ لقائي بهم بعدَ هِجرتِهِم، وقتَ كنتُ في سادِسَتي، فلن تُدرِكَ الأربعةَ والعشرينَ يومًا. هو يومٌ واحدٌ في السَّنَةِ، يجيءُ بهم وقد كبروا سنة، يجيءُ بهم في كلّ مرّةٍ وقد تغيّرت ملامحُهم عن المرّةِ الأخيرة، من دون أن يكون لي ذاكرةٌ تحفظُ أيامنا ونحنُ نكبُرُ معًا في بيتٍ واحد. يا لِظلمِكَ يا والدي. ها قد أنت أوبَةُ إخواني السَّنويةِ فيما يُشبهُ الحجَّ إلى قبرِ أُمّنا في ذكرى وفاتها يومَ غد. تنهَّدْتُ ألفظُ وجعي همسًا كأنما أذكّرُ البحرَ بوعْدٍ لم يقطعه أبدًا: بقي الصَّغيران؛ زينة ورخّال. وبينما صورة السَّفينة التي أخذتهما تومضُ في رأسي، رمى غادي مرساته الصَّدِئَةَ بحرًا إلى جانب الرّصيفِ الصّخري. التهمتُ ملامحَهُ بنظري أجترُ فُتاتِ ذكرياتٍ جمعتني به طفلًا. شقيقي الأكبر، عَزَوَتِي، مثلي الأعلى الذي يكبرني بعشرين عامًا، سندي إذا ما تنمَّرَ عليّ صبيةُ الحَيِّ وسرقوا كرياتِي الزجاجية، يكفيني أنادي مرّةً واحدة: غادي! حتى يغدو كُلُّ شيءٍ مثلما أريد. شيءٌ من اثنين لا بُدَّ أن يصير؛ أن يجيء غادي مُشَمَّرًا كُمَيْهِ عن ساعِدَيْهِ ينتَقِمُ لشقيقهِ الأصغر، يستعيدُ كرياتهِ المنهوبة، أو أن يهرب الصبيةُ المتنمِّرونَ بمجرَّد سماعِ ندائِي. ها هو يجيءُ عليّ وعدٍ قديم، من دون أن أناديه. لا أريدُه اليومَ يستعيدُ كرياتِي المنهوبة. لو أنه يُعيد لي ما افتقدتهُ صبيحة

أَمْس! قَامَ بِعَقْدِ حَبْلِ الْقَارِبِ إِلَى أَحَدِ أَعْمَدَةِ الْمَرْسَى الْخَشْبِيَّةِ. نَزَلَ مُثَاقِلًا مِنْ قَارِبِهِ فِي مَشْهَدٍ يَنْكَرَرُ كُلَّ عَامٍ. صُورَةٌ لَا تَحْمِلُ جِدَّةً مَعَهَا إِلَّا شِيَابَ جَدِيدَةٍ زَاحَمَتِ شَارِبَ غَادِي وَانْحَنَاءٍ مَنَحَ ظَهْرَهُ تَقْوَسًا أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ. أَحْكَمَ لَفَّ غُتْرَتِهِ عَلَى رَأْسِهِ وَبَاعَدَ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ، يُوَاجِهَنِي بِصَدْرِهِ، يَوْمِي لِي بِرَأْسِهِ بِاسِمًا: تَعَالِ! لَهُ اسْتِدَارَةٌ وَجْهَ أُمِّي وَابْتِسَامَتَهَا. أَسْرَعْتُ إِلَيْهِ أُعَانِقُهُ. مَسَدَ عَلَى ظَهْرِي يُعْزِنِي. لَعَلَّ أَحَدَهُمْ أَبْرَقَ إِلَيْهِ يُنَبِّئُهُ بِالْفَاجِعَةِ. أَيُّ صُدْفَةٍ فِي أَنْ تَسْبِقَ فَجِيعَتِي ذَكَرِي فَقَدْ أُمِّي بِيَوْمِينَ! تَشَمَّمْتُ رَائِحَةَ طِينِ بَيْتِنَا الْقَدِيمِ فِي ثَوْبِ غَادِي وَجَلَدِ رَقَبَتِهِ الْمَتَغَضَّنِ. مِنْ شَأْنِ عَشْرِينَ سَنَةٍ يَكْبُرُنِي بِهَا غَادِي أَنْ تَرْتَفِعَ بِهِ إِلَى مَنْزِلَةِ أَبٍ، وَأَنْ تَهْبِطَ بِي إِلَى مَنْزِلَةِ ابْنٍ صَغِيرٍ. غَبْتُ فِي عِنَاقِهِ حَتَّى انْتَبَهْتُ إِلَى وَصُولِ الْمَرْكَبِ الْكَبِيرِ، قَاطِعًا طَرِيقَهُ بَيْنَ زَوَارِقِ خَفَرِ السَّوَاحِلِ، تَحْتَكُ أَخْشَابُهُ فِي صُخُورِ الْمَرْسَى. يَنْزِلُ سَفَارَ وَعَوَادَ، يُبَيِّنَانِ لَوْحًا خَشْبِيًّا مِثْلَ جِسْرِ بَيْنَ الْمَرْكَبِ وَالرَّصِيفِ الصَّخْرِيِّ، يُعَاوَنَانِ رَابِعَةَ الْمُتَشَبِّحَةِ بِالسَّوَادِ عَلَى الْعُبُورِ. يَقِفُ الْاِثْنَانِ إِلَى جَانِبَيْهَا يُمَسِّكَانِ بِيَدَيْهَا. أُنْقَلُ بِصُرِي عَلَى الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ. أَجْمَعُ مَا وَرَثْتُهُ مِنْ مَلَامِحِ أُمَّنَا؛ دِقَّةَ أَنْفِ سَفَارَ وَشَفَاتِهَا، عَيْنَا رَابِعَةَ وَغَمَازَةَ خَدَّهَا الْأَيْمَنِ، اتِّسَاعَ جَبِينِ عَوَادَ وَانْحِنَاءَ حَاجِبِيهِ. تَجْمَعُنَا أُمِّي فِي مَلَامِحِهَا الْمُنْتَوْرَةِ فِي وَجْهِهَا وَطَبَاعِنَا، وَنَفْتَرِقُ فِي مَلَامِحِ وَالِدِي الَّتِي لَمْ أَرِثْ مِنْهَا شَيْئًا، كَأَنَّهَا مِيرَاثٌ اقْتَسَمَهُ إِخْوَتِي مِنْ دُونِي.

يَتَقَدَّمُ الْأَرْبَعَةُ صَوْبِي وَحُضُورَ رَابِعَةِ يُشَبِّهِ حُضُورَ أُمِّي يَدْفَعُنِي لِلرَّكَضِ نَحْوَهَا مِثْلَ طِفْلِ يُقَابِلُ أُمَّهُ بَعْدَ فِرَاقٍ. أَقِفْتُ أَمَامَهَا أُرَوِي عَطَشًا خَلَفَهُ غِيَابُ وَجْهِ غَالِبَتِي. تُلْصِقُ كَفَّهَا إِلَى وَجْهِتِي تَحْسَسُ

وجهي، تقرأوني كما لو كنت ولدا. حبيب أختك يا منوال. يحمرُّ
أنفها فتفعل ابتسامة، تتخضّل عيناها، تنقطع أنفاسها وترتعش
شفتاها. تسكت عن قول شيءٍ لثلاثي فيجزُّ بكأها بكائي. أعانقها.
أنشّق رائحة أُمِّي في عباءة أختي. أنظر من وراء كتفها إلى البعيد
عند تلاقي السماء والبحر. يهتز جسدي بكاءً غصبًا عن إرادتي.
أنخرطُ في نحيبٍ بفعل فقدين، أحدهما دفعتُ بذِكراه رائحة عباءة
رابحة، والآخر لم يُفارقني منذ مرور السفينة العملاقة من هنا. من أين
لإخوتك، غير الدّم، صلةٌ تجعلهم إخوة؟ صلةٌ تتجاوز تاريخكم بكلِّ
هئاته وسنوات القطيعة وقت يُعانق واحدكم الآخر، صلةٌ تمنحك في
العناق شعورًا آمنًا بأنك تستعيد جزءًا مبتورًا من جسدك. تُمسدُ رابحة
على رأسي وأنا في حضنها: ابك، ابك، يا ابن أُمِّي. أمرغ وجهي بين
عُنُقها وكتفها أسمى فجيعتي: زينة ورخا! يتحشرج صوئها: أدري..
أدري.. حمامتان من حمامات الجنة يا حبيب أختك، أخذهما من
جاء بهما. ارتعشت شفتاي تلفظان ما يدريه عقلي: لن يعودا! يتحفّر
الهاتف القديم في داخلي وأردده فيما يُشبه صلاة: حمام الدار لا
يغيب! أسندتُ ذقني إلى كتف رابحة أطوّقها بذراعي. أطلقتُ بصري
إلى البحر أبتم. يطيبُ لي قلبي الذي تُبرهنُ على صدقه عودة
إخوتي كلّ عامٍ رغم طول الغياب. يُربّتُ غادي على كتفي مُبدّدًا
خيالاتي. لا داعي لانتظار ما لن يعود. أنتفض أُجيبه. من يجيء بكُم
كلّ عام.. يجيء بهما.

صارَ منوال يدخلُ غرفةَ نومِهِ بظهره. جرَّبَ يومَ أمس أن يلجَ
 الغرفةَ مُتقهِّقِرًا، مُتظاهِرًا بعدمِ انتباهِهِ إلى طيورِ الدُّكَّةِ وراءه. ينظرُ إلى
 الزَّرَازيرِ والفواخِتِ والحمامَةِ في المِراةِ أمامه. الغريبَ أنها لم تهزَّب!

..

..

«مُناوِشَةُ شَكِّ لِيَقِينِ»

تركْتُ المرسى قبيلَ الفجرِ وراءَ ظهري، أحملُ خيَنتي ماضِيًا إلى
 بيتنا العربي القديم الذي لم أعد أزوره إلا مرَّةً في السَّنةِ وقتَ إيابِ
 إخوتي. صارَ ما يُشبهُ نُرًّا وقتَ زيارَتهم. وجدُّته خالِيًا من زوَّارِهِ الذين
 أقبلوا يومَ أمس. لا أثرَ لهم إلا في صورةِ جدارٍ قديمة، تجمعُ والديَّ
 وإخوتي من دوني. كنتُ أحتاجُ إلى إخوتي أكثرَ من أي وقتٍ مضى.
 حماماتِ الدَّارِ كدأبها في حجَّها السَّنوي تخرجُ فجْرًا إلى المقبرةِ
 قبلَ ذهابها إلى سوقِ المدينة، ثُمَّ إلى المرسى من أجلِ عودتها إلى
 الجزيرة. فلتعذرني أُمِّي هذه السَّنة لتخلُفني عن زيارتها، ولتنعمَ بزيارةِ
 حماماتها الأثيرات. عدتُ إلى المرسى لعلَّ زينةَ ورخَّالٍ قد استدَلَّ
 طريقًا يجيئُ بهما إلى السَّاحلِ في اليومِ الثاني لغيابِهما.

رفعتُ ثوبي أطوي طرفهَ عاقِدًا إياه عندَ خاصرَتي. أقمِيتُ فوق
 صَحُورِ رصيفِ المرسى أُرسلُ نظري بعيدًا، أمشِطُ صفحةَ الماءِ
 المتراميةَ على مدِّ البصر. لا أثرَ لِبُغْيَتِي بينَ كُرياتِ إسفنجيةٍ، غيرَ
 بعيدة، تطفو مِن شِبَالِ طاروف، وبقايا أخشابٍ وقواربٍ صغيرةٍ

تناثرت في المكان. بين عقلي وإيماني كنتُ شاردًا أطفو في الوسط. يوشيكُ هذا العقل أن يُسلمَ بأمرٍ عودتهما إزاء إصرار رغبتَي المريضة. ألم تقل إنهما لن يعودا؟! رحتُ أُنكر. صغيران والموجةُ كانت شديدةً عالية. انتفضتُ وقد أفرغتني فكرةٌ لا محلَّ لقبولها لديّ. انتزعتُ من داخلي ما يُقيني على قيدِ أمل. رُبّما. هزرتُ رأسي ألجأ إلى إيمانٍ غافٍ أوقظه. نعم، رُبّما. الـ رُبّما صارت أكيدًا وأنا أُغذي رغبتَي برؤيتهما. رحتُ أكرّر. أكيد. أكيد. تربّعتُ على الصُخور أهيئُ نفسي لانتظارٍ طويل. تمرُّ قِطعةٌ يتبعها صغارُها. أبتسم. أتذكرُ الصّغيرين وقتَ كُنّا هُنا، في السّاحلِ المُحاذاي للمرسى. أشيرُ لهُما نحو الرّصيف الصّخري. غدًا يجيءُ أعمامكما لزيارة قبر جدّتكُما. يرْكُضان كأنّ الفقدَ شيءٌ لن يكون. يرُشّان الماءَ على بعضيهما ويُسَيّدان بيوتًا من الرّمْل وصخورِ البحرِ وقواقعِهِ. مضى الاثنان مثل الزمن، وبقيت أنا على قيدِ انتظار. منيرةٌ أيضًا كانت هُنا، تُقرِفُصُ إلى جوّاري. كلانا كان مُطمئنًا قبل أن تأتي السّفينةُ تحمِلُ معها الصّغيرين من دون إذنٍ وتمضي. أيُّ وجعٍ حلَّ بك وقتَ استحالت كلمتك الأثيرة، على لسانيهما، أخيرة: يَبْه. يَبْه. يَبْه. تلك الكلمة التي لم تُسعِفك يومَ مددت ذراعيك لأبيك وقت غرقت صغيرًا، كلمة يَبْه التي لا يسمعها والدك قط مهما ناديته بها، لم تُسعِف صغيرك وقت مجيء السّفينة التي لعتك بأبوتك. أمضيت سنواتٍ من زواجك تنتظر مجيئهما. جاء، ولكنك لم تفلح في الحفاظ عليهما، فامضِ بقية عُمرِكَ في انتظارٍ ما أضعته.

مضى الوقتُ بطيئًا وأنتُ تُناوِره باستعادة ذكرياتٍ قريبة وأخرى

بعيدة. ساعاتٍ لم يتخللها شيءٌ عدا أسئلة البحّارة في ذهابهم وإيابهم. أي أخبار؟ تومئُ برأسك تحتمي بصمتٍ يُغنيك عن إجابةٍ تمقّتها. تدنو الشمسُ نحو مغيبها بغير اكتراثٍ لعوزك إلى أشيعتها تعينك على رؤيةٍ مُقبلٍ مُحتمل. احتمالٌ لا مكان لتحقيقه إلا في أملٍ عبثي ابتدعته تُسميه إيماناً يُكرّسه قولٌ لا أساس له؛ حمامُ الدّارِ لا.. يُربّتُ أحدهم على كتفك. ترفعُ رأسك. غادي بوجهه المُتعب يسأل. يا ابن أُمّي، ألن تزور قبرها؟

أستقيمُ واقفاً أمام غادي. أشيرُ بذقني صوب البحر. سوف أفعل.. مع الصّغيرين فورَ عودتهما. يلتفتُ غادي إلى سفّار وعوّاد ورابحة كأنما خذله برّدّي. يتبادلون الصّمت. تقتربُ رابحة بملامح متوسّلة. منوال، لم يبقَ لك أحدٌ هنا، ألا تأتي معنا؟ وكأنها لا تدري أن لي في هذه الأرضِ قبراً لا أُطيق فراقه، وأملأُ يميني في هذا السّاحل منتصباً مثل فرّاعةٍ قديمةٍ مُهترئة. ثمّ من أين لها يقينها بألا أحدٌ لديّ؟ أسألها أستوضح إلّام ترمي. هل زُرّت منيرة؟ أو ماتت تُردف. زرتها، وأنصحك ألا تفعل! أشيخُ ببصري صوب البحرِ أبتلعُ حروفاً لا طاقة لي بلفظها. زوارق خضر السّواحل باتت بعيدة، بالكاد ألمح بعضها. يمضي إخواني نحو المركّبين يحملون أمتعتهم. يرحلون. كيف يرحلون هكذا؟ لقد روّضهم الفقدُ على القبول مُذ إذعانهم الأوّل لقرار والدنا بالرحيل. يضجُّ المرسى الصّغير بدويّ قاربٍ غادي. يتبعه مركبُ الثلاثة. يُلوحون بأيديهم موغلين في ابتعادهم بحرّاً. ألّوح لهم بإيماني الرّاسخ بعودتهم الأكيدة بعد عامٍ من سفرهم، كما سيفعل رَحّال وزينة قريباً ليجدانني في المرسى أنتظر. يخبو إيماني لحظة اختفاء إخواني.

لحظة يخبو هدير المراكب بعيدًا. لحظة أجدني وحيدًا. أردد اسمي الصّغيرين كتعويذة تُبقي على إيماني. يُعاندني عقلي. لا تنتظر، وحدهُ المُسافر يعود، لم يُسافر، لن يعود.

منوال

.. تذكر منوال فيروز التي طال غيابها. أتراها تاهت في السماء؟ هل ابتلعها الزرقة هي الأخرى؟ ما كاد يُنهي تساؤله حتى ظهرت على دكة النافذة تحمل ورقة شجر يابسة..

«مِنحةُ العَقلِ ومِحنتُهُ»

لا أفهم شيئًا. لماذا أنتظر رَحال وزينة في المرسى وغيابهما ليس مثل غياب إخوتي، لِمَ هذا الانتظار ما لم يكونا في سفر؟! أنا أذعن لإيماني، والإيمان لا يعدو كونه رغبة، والرغبة ليست أكيدة التحقق ولكن شيئًا أفضل من لا شيء. أو غُلّ في تفكيري تشاؤمًا لعلّ الهاتِف يصحو من غفوته، كما عودني، يُسكّن رعدة أضلعي. أكذبه لعله يتنفّض، يُثبت لي عكس ما أقول. أسئلةُ الفقد تطوّقني. ألعن عقلي. والسؤال.. وحدهُ السؤال مِنحةُ العقل ومِحنتُهُ. والإيمانُ هو أن تُعلّق أسئلتك على جبال الغيب، وأن تُجمّد عقلك، وأن تعقد صفقة مع لا شيء، لأن لا سبيل لك إلا انتظار غدٍ قد يجيء بما تُريد أو لا يجيء. لا العقل يُسعفني ولا الإيمان ولا برزخ الأسئلة بينهما.

بقيت مُقرّصًا على الصّخور أنتظر. حائرًا بين اثنين؛ مؤمنٌ بفكرتي وأرفضها، كافرٌ بحدسي وأرغبه. أدت ظهري للبحر وقت

ابتلعت الظلمة المرسى. حثثُ خطوي إلى بيت أهل زوجتي. مضى
يومان من دون أن أراها وقد غصّ بيتهم بالنساء اليوم وأمس يُعزّينها.
من أين لهنّ هذا اليقين؟ كيف يُعزّي المرءُ بطفلين يمكثان في مكانٍ
غير معلوم، يعودان غدًا أو بعد غد!

منوال

.. مرّر ظاهر كفّه على ذقنه. تحسّس شعره الأشيب النابت.
غريب! كنتُ صغيراً يوم أمس! غار رأسه بين كتفيه. قطّب حاجبيه.
ألصق فكّه السفلي برقبتّه ونفخ صدره: غروووغ غرووووغ.

* * *



Moshaal & Faisal

صباح ثانٍ

135

«.. أَخَذَ يُلَوِّحُ بِيَدِهِ. يَصِيحُ بِهِمَا: رَحَّال.. زينة! ثم أَطْبَقَ أَسْنَانَهُ عَلَى طَرَفِ ثَوْبِهِ وَرَاحَ يَرْكُضُ كَالْمَجْنُونِ!».

.. ارْكُضْ يَا جَبَان! ثُمَّ أَقْفَلْتَ طَلِيقَتَهُ الْخَط. رَكَضَ مَنَوَالٍ إِلَى الْمَطْبَخِ يَغْلِي الْمَاءَ.

«فَاقْدُ الشَّيْءَ، قَدْ يُعْطِيهِ»

تَبَعْتُ وَالِدَةَ زَوْجَتِي مُتَرَدِّدًا ثَقِيلَ الْخُطَى إِلَى حُجْرَةٍ فِي مَنَاصِفِ مَمَرٍ الْمَدْخَلِ تَمَكُّثُ فِيهَا مَنِيرَةٌ. حُجْرَةٌ ضَيْفٌ، وَهَذَا يَمْنَحُنِي شَعُورًا بِأَنَّهَا لَنْ تُطِيلَ الْبَقَاءَ، مَنِيرَةٌ حَتْمًا تَعُودُ. أَدَسْتُ كَفِّي فِي جَيْبِي ثَوْبِي. أَفَكَّرْتُ فِي دَافِعِ أُمِّ مَنِيرَةٍ لِأَنْ تَسْتَقْبِلَنِي مُسْتَرَةً بَعَاءَتِهَا، ثُمَّ سَكَّ بِحُزْنٍ مِنْهَا أَمَامَ وَجْهِهَا لَا تَكْشِفُ إِلَّا عَيْنًا وَاحِدَةً كَأَنَّمَا تَسْتَقْبِلُ غَرِيبًا. يَتَنَاهَى إِلَى سَمْعِي بِكَاءِ طِفْلةٍ. أَتَلَفْتُ. ابْنَةُ أُخْتِ مَنِيرَةٍ تَبْكِي فِي آخِرِ الْمَمَرِ. تَرَكُضُ نَحْوِي تَتَشَبَّثُ بِثَوْبِي. عَمِّي عَمِّي أَعْدَلِي الدُّمَيْتَيْنِ. لَمْ أَفْهَمْ شَيْئًا. أَبْعَدَتْهَا جَدَّتُهَا نَاهِرَةً وَأَشَارَتْ لِي أَنْ أَتْبَعَهَا. فَتَحَتْ بَابَ الْحَجْرَةِ تَوَمَّي لِي بِالْدُخُولِ قَبْلَ أَنْ تَنْصَرِفَ مِنْ دُونِ أَنْ تَفُوهَ بِكَلِمَةٍ. مِلْتُ بِرَأْسِي أَنْظُرُ دَاخِلَ الْحُجْرَةِ الضَّيْقَةِ. أَلْفَيْتُ مَنِيرَةً مُقَرِّصَةً فِي الزَاوِيَةِ عَلَى أَرِيكَةٍ أَرْضِيَّةٍ، تَحْمِلُ بِذِرَاعَيْهَا دُمَيْتَيْنِ بِلَاسْتِيكِيَّتَيْنِ مُقَمَّطَتَيْنِ بِأَقْمَشَةٍ مُتَسَخِّةٍ؛ قِمَاطٌ وَرَدِي، وَآخِرُ أَزْرَقِ سَمَاوِيٍّ. تُهْدِهُمَا تُنْشِدُ تَهْوِيدَةً حَزِينَةً

وعيناها ناعستان ساهمتان نحو الأرض. أسندت إحدى الدُميتين بين
فخذيهما في حين أسندت رأس الأخرى إلى زنديها. فكَّت عقدة ثوبها
عند الصدر وعيناها نحو الأرض لا تزالان. حرَّرت ثديها تُلَقِّمُ الدُّمية
حلمتها وهي تُبْسِلُ وتُمسِّد على رأسها البلاستيكي. دخلت الحجرة
مُتنحِنَةً. حدجتي منيرة بنظرة غضبٍ أو حزنٍ مرير، لا أدري، لمسْتُ
في نظرتها المضطربة وانكماش جسدها نفورًا. دنوتُ إليها مَادًّا كَفِّي
إلى رأسها. غارت رقبتها بين كتفَيْها من دون أن تنظر إليّ. كدتُ
أَلَمِسُ رأسها أَمْسَدَه لولا أن عاجلتني تضربُ كَفِّي بيدِها تَبْعُدُها.
كَفِّي قَريبَةً لا تزال. أناوِرُها. منيرة! أَلَقْتَ نظرها على كَفِّي متوجِّسَةً.
زعلانة؟ سألتُها. عاجلتني بضربةٍ أخرى أشد. سحبْتُ ذراعي. لا بأس.
صدَّقيني. تحشرج صوتي. حمامُ الدَّارِ لا يغيب. ظَلَّتْ منيرة بعينين
حمراوين لامعتين تُراقِبُ كَفِّي العائِدة إلى داخل جَيْبي. ابتسمتُ لها
وقد هدأ خوفُها. حتى أَنتِ تَوَمنين بما أؤمن. ابتسمتُ أَدْفَعُها لأن تردَّ
لي ابتسامة. عيناها الشَّارِدَتان تنظران إلى الأرض ثانية. أفلتت دموعًا
غزيرة وهي تهزُّ زنديها وفخذها تُهدِّد الدُميتين. تترنَّم بصوتٍ هَدَّه
التَّعب:

للحبيب وسادة، حظيت زندي، للحبيب وسادة
نحت أنا لو أبرأ، نوح الحمامة، نحت أنا لو أبرأ
من أين للحمام قُدرته أن يوجِدَ له مَحَطًّا في كُلِّ ظرف؟!

منوال

.. أطلقت فيروز جناحيها للريح. جحظت عيناه وهو يُحدِّقُ في

العُش. أَسْنَدَ كَفِّهِ إِلَى رَأْسِهِ فَاغْرَأَ فَمَهُ عَلَى اتْسَاعِهِ. يَا جَبَانَةَ تَعَالِي! كَيْفَ لَهَا أَنْ تَتْرَكَ بِيضَتَيْهَا عَلَى هَذَا النَحْوِ؟ .. حَمَلَ الْبِيضَتَيْنِ فِي كَفِّهِ الْمَرْتَعِشَةِ. دَفَأَ فَيَرُوزَ عَلَى قِشْرَتَيْهِمَا لَا يَزَالُ.. زِينَةُ وَرَحَّالٍ! نَعَمْ، أَنْتُمَا زِينَةُ وَرَحَّالٍ! كَانَ يَحْلُمُ بِمِثْلِ هَذِهِ اللَّحْظَةِ مُنْذُ أَمْسٍ طَوِيلٍ. هَزَّ رَأْسَهُ يَضْحَكُ. حَمَامُ الدَّارِ لَا يَغِيبُ.

«زُرْقَةُ تَفْتَحُ أَبْوَابَهَا عَلَى مَوْعِدٍ مُسْتَحِيلٍ»

أَتَذَكَّرُ وَالِدِي فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، حَاضِرًا بِجَسَدِهِ مَرَّةً، وَبِشَبْحِهِ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ زَمَنِ طَوِيلٍ، فِي ذَلِكَ الْمَرْسَى الْمَشْطُورِ بَيْنَ زَمَنَيْنِ، زَمَنِ هِجْرَةِ إِخْوَتِي الْبَعِيدَةِ قَبْلَ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَزَمَنِ سَوْفٍ يَجِيءُ بَعْدَ سَنَوَاتٍ طَوَالٍ يَشْهَدُ فِيهِ هَذَا الْمَكَانُ فَجِيعَتِي بِالصَّغِيرَيْنِ، فَجِيعَتِي قَبْلَ يَوْمَيْنِ.

فِي سَادِسَتِي كُنْتُ. غَادِي فِي عِشْرِينِهِ. رَابِحَةُ وَعَوَّادٌ وَسَقَّارٌ عَلَى ذَلِكَ التَّرْتِيبِ، كُلٌّ يَصْغُرُ الْآخَرَ بِعَامَيْنِ. يَسِيرُ الْأَرْبَعَةُ عَلَى رَصِيفِ الْمَرْسَى مَطَّاطَيْنِ مُذْعَنَيْنِ. أَجْرِي نَحْوَهُمْ مَادًّا ذِرَاعِي. أَنَادِي كَلَّا بِاسْمِهِ. يَقْطَعُ وَالِدِي طَرِيقِي إِلَيْهِمْ. يَفْتَحُ ذِرَاعِيهِ يَصِيحُ بِي. الْبَيْتِ، الْبَيْتِ عِنْدَ أُمِّكَ! إِخْوَتِي لَا يَلْتَفَتُونَ إِلَيَّ. وَأُمِّي الْبَاكِيةُ فِي بَيْتِنَا مَوْصِدَةً بِأَبِهَا لَا قَوْلَ لَهَا إِلَّا مَا حَمَلَتْني إِيَّاهُ. قُلْ لَهُمْ: لَا تَقْطَاعُوا.

أَقْفُ أَنْظُرُ إِلَى إِخْوَتِي مُطَرِّقِينَ مَاضِينَ فِي الرَّحِيلِ. يَتْبَعُهُمُ وَالِدِي غَيْرَ مَكْتَرِثٍ لِكُلِّ مَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ؛ الْمَدِينَةُ، الْبَيْتِ، أُمِّي وَأَنَا وَخَوْفُنَا الْعَالِقُ غَضَّةً فِي حُلُوقِنَا. يُبْجِرُ الْمَرْكَبُ مُبْتَعِدًا. الرِّيحُ شَدِيدَةٌ تَصْفَعُ أُذُنَيَّ وَتُبْعِدُ غُرَّتِي عَنْ جَبِينِي. كَفَّاي فِي جَيْبِي أَحْدَقُ فِي الزُّرْقَةِ سَاهِمًا.

لم أفكّر في الرّيح مؤمناً بسلامة وصولهم، ومن ثم عودتهم إلى دارنا مهما طال الغياب، حتى وإن حالّ والدي بيني وبين إيصال قولٍ صار وصيّة لم يُسعِفني الوقت لتنفيذها: لا تقاطعوا.

وبعد مرور زمن طويل على هجرة إخوتي، وقفتُ في المكان ذاته على حافة خليج المرسى حيث يبدأ الشّاطيء، مُتخلّياً عن ذكرى سادستي وأنا في الثلاثين، وقفتُ هناك أقضيمُ أظفاري وقت مرّت سفينة كسرتني في داخلي وهذّت داراً آمنة. كان والدي قد تُوفي مُنذ زمن، قيل إن زوجته وجدته على السرير ميتاً، يرفعُ سبّابته اليمنى يشهد ألا إله إلا الله، ويرفعُ وسطاهُ اليسرى في وجه العالم!

رغم موته لم يزل يُطوّقني بالخوف من البحر. الأزرق الذي مُدّ شربتُ ماءه غرقاً ما فلتحتُ أطفو فيه يوماً. كان والدي هنا وإن لم يكن. يحولُ بيني وبين زينة ورّخال وأذرعهما الممدودة نحوي. كانا ينظران إليّ لعلّي أفعل شيئاً إزاء أزرق يُداهمهما وأزرق يُداهمني، ولكنني لم. أو شكّت أن، ولكن شبح والدي أفلح في صدّي. أطلقا صرخاتهما إليّ. يُيه. يُيه. يُيه. ظهرَ أبي، أعني شبحه، لا أدري من أين، ولا أدري لماذا استفرّته نداءات الأب وهو الذي لم يكثر لنداءاتي صغيراً وقت تركني للغرق! ظهر خياله على حين غرّة بواجهنّي، يصدّني فاتحاً ذراعيه عند التقاء الرّمل بالماء. لا أنذركُ صورة عدا الأزرق، والشّبح بقامتِه الطويلة مُلقياً غُترته على رأسه كيفما اتَّفَق، يناورني، يُصَفِّقُ ويُصَفِّرُ ويدفعني بعيداً عن صغيري. الخوف. الخوف هو كُلُّ ما بقي عالِقاً بالذاكرة، وصوت نداءاتي فور ما خَبِت نداءاتهم.. زينة! رّخال!

رفعتُ طرف دِشداشتي إلى فمي أَعْضُّ عليه. أدتُ ظهري للبحر
وركضت.

منوال

تَبَّه إلى البيضتين في كَفِّهِ وقد فقداءِ فيروز. ارتبك. أطبق
كَفِّهِ عليهما برفق. قَرَّبَ كَفِّهِ إلى شفّتيه وراح يَنْفُخُ ببطء. عبثاً!
أعادهما إلى العُشِّ وأطبقَ زجاج النافذة .. رفعَ رأسه إلى أعلى
الجدار. لو أن للنافذة ستارة؟ كان لهذه النافذة ستارة! أجهش.

«تَحَالَفُ الْأَضْدَادِ ضِدَّ قَلِيلِ حِيلَةٍ»

لم أقوَ على النظر في عيني منيرة. هي لم تعد موجودة حتى
أفعل، أقول أو أبرّر. منيرة منذُ أُمس في بيتِ أهلها في حين مكثتُ أنا
في شقتنا أعصرُ رأسي مرّةً، وأضرب صدري بقبضتي مرّات. أراوحُ
بين فكرةٍ وحدسٍ كلاهما يبدو مُقنِعاً إزاءِ هواجسي. أغمضُ عيني.
لن يعودا. لن يعودا. أكرّر القولَ لعلّ هاتِفًا في صدري يُجيب. لا
يُجيب! لن يُطيلَا الغياب، أليس كذلك؟ بابُ الشقّة الوحيد سوف
يُطَرَق. نعم، سوف يُطرق. أفتحه. منيرة تُمسِكُ بِيَدَي الصَّغِيرَيْن.
ينظران إليّ بعيونهما الشّهلاء يتسلمان. أجلسُ على رُكْبَتَي عند عتبة
الباب أعانِقُهُمَا. أطوّقُ كلاً منهما بذراع. أتشمُّ رائحتهما. أرفعُ
رأسي لـ منيرة أعتذر. أقسمُ أن ما حدث لن يتكرر. أنتفضُ إثر فكرةٍ
عابرة. تختفي منيرة. يختفي الصَّغِيرَان ويوصدُ بابي من جديد. أنا أكره
أن أفكر. هذا الشيء الذي هنا، مصدرُ الإدراكِ قاسٍ، صادمٌ بشعٍّ لا

يُلَطِّفُ حَقِيقَةً، ولكن.. من أين للمرء أن ينأى بطمأنينته عن صُراخ عقله
إزاء إيمانه الأخرس؟! شيءٌ ما في هذا العقلِ أَصْدُهُ، أَفْكَارُ أُسْمِيهَا
وَسَاوِسُ تَدْفَعُنِي لِلْجَنُونِ. فتَحْتُ بِابِ شَقَّتِي لَا أَلْوِي عَلَى شَيْءٍ إِلَّا
إِدْرَاكَ السَّاحِلِ قُرْبَ الْمَرْسَى. أَدْعُكَ عَيْنِي أَزِيلُ ضَبَابَ الدَّمْعِ عَنْهُمَا.
إِبْكِ يَا أَنْتِ! إِبْكِ وَانْتَظِرِي شَيْئًا لَنْ يَعُودَ أَبَدًا!

هناك، غاصت قدماي عند التقاء الرَّمْلِ بالماء، بكيت. بكيتُ
غِيَابَ زِينَةِ وَرَحَالِ، وَضَعْفَ إِيمَانِي بِعُودِيهِمَا، وَقَسْوَةَ عَقْلِي.

منوال

.. يُقَطِّبُ حَاجِبِيهِ. يَتَذَكَّرُ. طَوْقُهُ أَبُوهُ بِذِرَاعِهِ يَسْحَبُهُ نَحْوَ السَّاحِلِ
مِثْلَ خَرَقَةٍ بَالِيَةٍ مُبْتَلَّةٍ. جَبَانًا! تَرَكَهُ عَلَى الرَّمْلِ فِي شِبْهِ إِغْمَاءَةٍ. انْحَنَتْ
الْأُمُّ عَلَى صَغِيرِهَا تَلْفُهُ بِمَنْشَفَةٍ وَهِيَ تَبْكِي. اسْتَفْرَغَ الْمَاءُ الْمَالِحَ عَلَى
جَسَدِهِ. الْمَاءُ الْمَالِحُ حَلِيفُ الشُّؤْمِ..

«أَفْعَى الدَّارِ لَا تَخُونِ»

فِي غُرْفَةٍ مَنِيرَةٍ الَّتِي حَسِبْتُهَا مُوقْتَةً، فِي بَيْتِ أَهْلِهَا، كُنْتُ أَجْلِسُ
مُقَرَّفَصًا فِي الرُّكْنِ صَامِتًا. تَرَكَتُ مَنِيرَةَ الدُّمَيْتَيْنِ الْبِلَاسْتِيكِتَيْنِ عَلَى
مَرْتَبَةِ جُلُوسٍ أَرْضِيَّةٍ. أَطْبَقْتُ الدُّمَيْتَانِ أَجْفَانَهُمَا فَوْرَ مَا صَارَتَا فِي
وَضْعِيَةِ النَّوْمِ. رَحْتُ أَحْمِلُوقُ فِي وَجْهَيْهِمَا. تَذَكَّرْتُ صَغِيرِي وَقْتُ
كَانَا رَضِيعَيْنِ. لَمَحْتُ شَبْهًا بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ. طَرَدْتُ الْفِكْرَةَ مِنْ رَأْسِي.
كُلُّ الْأَطْفَالِ الرُّضَّعِ يَتَشَابَهُونَ، حَتَّى الدُّمَى. أَدْرْتُ وَجْهِي نَحْوَ
الْبَابِ لِئَلَّا أَوْغَلَ النَّظَرَ فِي الدُّمَيْتَيْنِ. شَيْءٌ يَشُدُّنِي لِلْاِلْتِفَاتِ إِلَيْهِمَا.

أدرت وجهي صوبَهُما ثانية. لماذا يا منيرة؟! كنتُ أُحدِّثُني وأنا أراقِبُ غيابها مع خيالاتها. سوف يعودُ الصَّغِيران عاجلاً، ما الداعي لهذين الشَّيْئَيْنِ؟ انتفضتُ حينما شدَّني ظلُّ دخلِ الحجرة يسبقُ صاحبه. التفتُ إلى الباب المُشرع. فتحتُ عينيَّ على اتساعِهما أنظر إلى فائقة التي تعرَّفْتُها فورَ رؤيتها. تحولُ دلوًا. تُشبهُ صورتها القديمة لولا عصا خشبية تتوكأ عليها، وخصلات بيضاء لا جناء تلونُها تظهرُ من تحتِ ملفَّعِها، وانفراجة خطم الأرنب التي بدت أكثر اتساعاً ورخاوة. رمقتني تبسم. لم تُبدد ابتسامتها حُزن وجهها، ولم تُفرِّعني الابتسامةُ هذه المرَّة. لم تَفُهِ بكلمة. أسندت عصاها إلى الجدار ثم أقعت إلى جوار منيرة والدُّمَيَّتَيْن تفلُّ قماطيهما المُتَسَخِّين. تنزعُ لباسَهُما. تتناولُ قطعة قماشٍ من الدلو يتصاعدُ منها البخار. تعصرها قبل أن تُنظف الجسدين البلاستيكيين. حولَ الرقبة، أسفل الإبطين وبين الفخذين. تُقَمِّط الصَّغِيرَيْن بقماشٍ نظيف. داهمتني ذكرى ابتتها على نحوٍ مُفاجئ. نظرتُ إلى منيرة الصَّامِتة. أتذكَّر وعدي لها في أيَّام زواجنا الأولى. لا امرأة من بعدك! أتذكَّر سؤالها. ومن قبلي؟ أتذكَّر سكوتًا أحاطنا وصورة فتاتي الأثيرة لا تُبارح مُخيلتي. حملت فائقة دلوها تتكى على عصاها تسبقُ ظلَّها إلى خارجِ الحجرة. تبعْتُها بعينيَّ والخرسُ يُخيِّط شفتي. أتذكَّر كلام أُمي. فائقة أصيلة وفيَّة للدار. جاءت من وراء سنواتِ القطيعة كما لو أنها لم تَغِب يوماً. جاءت إلى منيرة تؤدي دورًا لا تتقن سواه؛ أن تكون قريبة من أهل الدار.

عند السَّاحِلِ قريبًا من المرسى أرسلتُ نظري بعيدًا وراء آمالي.

سوف يعود الصَّغِيرَانِ، تحملهما منيرة وتطرق باب شُقَّتِي الباردة،
يدخلون حاملين الدفء معهم. نعم، سوف يطرقون بابي.
وما دامت فايقة لا تتغيَّر، أصيلة، وفيَّة للدَّارِ لا تخون، فإن حَمَام
الدَّار..

منوال

.. مرَّ قبضتُهُ المرتعشة ببطء. فزعت. طارت فيروز من دون أن
تصفعه بجناحها كما تمنى. حال غروب الشَّمْسِ دون ابتعادها. لاذت
بسعفة النخلة المضطربة. نثر البذور في الهواء غاضبًا. ضرب الدكَّة
بقبضتيه. طيري يا جبانة!
.. أفزعه منظره في مِرَاة الحَمَام. وجهه باهت بين رماديٍّ وأزرق.
إنه البرد! أوجدَ لنفسه تبريرًا. ألصقَ ذراعَيْه إلى جسده فيما يُشبه وقفةً
عسكرية. نفخَ صدره. غرووووغ.

* * *



صباح ثالث

145

«.. ابتلعتُهُما الزُّرْقَة. لم يُعد يراهُما. أخذَ يُلَوِّحُ بيديه. يصبحُ بهما: رَحَّال.. زينة! ثم أَطْبَقَ أَسْنَانَهُ على طرفِ ثوبه وراح يركضُ كالمجنون!».

.. تنهَّدَ وهو يشاهدُ حمامتهُ الأثيرة تحشُرُ منقارها في منقار أحد الفرخين، لعلَّهُ رَحَّال الجديد، كأن أمَّهُ تُجَبِّره على الأكل. جسدُ فيروز يهتزُّ بعُنف تبذلُ كلَّ ما في وسعها لتودِّعَ سائلِ جوفِها في جوفِ الصَّغير. الفرخُ يُحرِّكُ جناحيه الورديين العاريين، إلا من زغبِ أصفر، كأنما يَنازِعُ ويلفِظُ أنفاسه مُستفِرغاً روحه..

«اتكأء رجاءٍ على صُدفة»

لم أَكُف التفكير في إخوتي ساعةً بعدما رحل بهم والدي الذي صارَ يعود بمفرده بين حين وآخر. أتراهم يعودون؟ أمِّي في المطبخ تعملُ صامته، وغناؤها لم يُعد. تردُّ أحياناً ترنيمةً تتخللها تنهَّداتٍ وأَنات. فابيقة مع ابنتها تنظفان الحوش وتعلفان الغنم والطيور. أنا مستلقٍ في زاوية البهو، في مكاني الأثير أسفل السُّلَم أُحدِّثني وأنظر إلى صورة والدي وإخوتي في الجدار. أُنذِرُ وقتَ قام والدي بتعليقها. سألته أين أنا؟ لم يكثر لسؤالي.

أُشيح ببصري عن الصورة، وذكُرُ يومَ تعليقها، وأُعاود السؤال. أتراهم يعودون؟ ولأن أحداً لا يملكُ إجابةً كنت أربطُ أُمْنِياتي بالصدف

مضمونة الوقوع. سوف أعدُّ إلى عشرة، وإذا ما قرقت الأواني في
مطبخ أُمِّي؛ يعودُ إخوتي ذات يوم.
واحد.. اثنان.. ثلاثة..

يرتفع هدير الماء في المطبخ. أتباطأ بالعدّ.
أربعة.. خمسة.. ستة.. سبعة..

تُصدر الأواني قرعَةً تختلس مني ابتسامة اطمئنان. أطمعُ
بمحاولة أخرى تُبدِّدُ شكوكي تقطع بالآمالِ مخاوفي.
أسألني مرّة أخرى: أتراهم يعودون؟
واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة..

أرهفُ السَّمْعَ أصغي. لا شيء. أواصل العدّ.
..ثمانية وتسعون.. تسعة وتسعون.. مئة!

منوال

.. الطقسُ ما زالَ بارِداً. أمعنَ النظرَ في الفرخين المرتعشين،
بوذه لو يحملهما إلى داخل غرفته يمنحهما شيئاً من دفء، لكن الغرفة
باردة أيضاً!

«إمدادُ الوَهمِ ذخيرةُ اليأس»

كانت زيارة والدي الأولى، على ما أذكر، بعد أسابيع مُدِّ حملٍ
أمتعته ورحل. تهلَّلَ وجهي أمام وجهه المكفَّهر. أُمَّنِي نفسي بأن
يكشِفَ الباب عن أربعة أرباعٍ لـ عزوتي الغائبة. ألقى والدي السَّلامَ
من دون أن ينظر إليَّ يسألُ عن أُمِّي. أشرتُ له صوب حُجرتها، في

حين رحتُ أجري نحو البابِ أتوسَّلُ إدراك بُغْيَتِي. لم يكن وراء الباب سوى حمار يحملُ سِلال التَّمَرِ وأكياس الدَّقِيقِ والحبوب جاء بها والدي، من الشُّوقِ القريب، تأدية واجبٍ لا أكثر.

وقفتُ وراء والدي عند عتبة بابِ حجرة أُمِّي. كانت مُغمضة العينين صفراء شاحبة هذَّها المرض. لم يبدُ لـ غَمَازَةِ خَدَّها الأيمن أثر. انتبهتُ لِقِصَرِ شَعْرِها، مفروقٌ في المنتصف، ينسدُّ إلى ما دون شَحْمَتَي أُذُنَيْها الخاليتين من الأقراط. عَمَّتِي تزورنا باستمرار مُنذ مرضِ أُمِّي. تقرأ القرآن من دون صَوْت وتنفُثُ قُرب وجهها. فايقة إلى جوارها تُزيل الكَمَّادات عن جبينها. تعصرُها وتُغَطِّسُها في الماء مرة تلو أخرى. همست أُمِّي، بصوتٍ لا أعرُفُه، من دون أن تفتح عينها. أنتِ جئتِ؟! اكتفى والدي يجيئها سؤالاً وهو يطوفُ ببصره أرجاء الحُجرة. كيف أنتم؟ والدي لا يسأل عني وعن عَمَّتِي إنما يُحدِّثُ أُمِّي بصيغة الجمع، من دون أن ينظر صوبها بعينه الحزینتين، تاركاً مسافةً بينه وبينها تُجَبِّهه الاقتراب. تجاوزت أُمِّي سؤاله بسؤال. هل جئتِ بالصَّغار؟ يُفِلِّتُ والدي ما يُشبهُ ضحكة. صغار؟! لم يعودوا صغاراً. التفتُ إلَيَّ يُشيرُ بذقنه. لديك ولدك الأشهل، صغيرٌ لن يكبُر أبداً. لم ألتفتُ إلى قولِ والدي، ولم يعد السؤال القديم يؤرِّقُني؛ لماذا تركني؟ بقدر ما كان صوت أُمِّي الجديد يشغلُّني. تَفَلَّتُ أَنَّهُ. يتنَهَّد والدي. لا ينظرُ ناحيتها وهو يقول بحزنٍ فسلُّ يُداريه. اتركي فراش المرض، فإنه لا يمنحك إلا أقصر الطرق إلى الموت. فتحت أُمِّي جفניה بصعوبة. نظرت إليه تَكْرُرُ على أسنانها. لفظت عينها دمعاً كأنما تبصقُ في وجهه. بترتَ أطرافي.. بترتَ أطرافي يا أزرقي. أشار والدي

نحوي وهو يُجيبها. ما زال قلبك في صحبة جيدة. تقترب عمتي منه تُحدّثه عن أمّي هَامِسة. قصّت جدليتها ناذرة: لا أطبلهما إلا بهما! قالت زوجتك عن جدليتها وهي تُمسك بالمقص. هذه لـ غادي ورايحة، وهذه لـ عوّاد وسفّار. تململ والدي في وقوفه. دموعه تبدو نشاراً في تعابير وجهه القاسية. استدركت عمتي تقول: زوجتك في حاجة إلى مستشفى. استدأّر يُنادي فايقة، تتبعه تُنزل حمولة الحمار. تُطبق أمّي جَفَنِيها. تجمعتا الجئة يا فريخات القلب. نظرت إلى السقف أضْمُ كَفّي إلى بعضهما أسفل ذقني. يا رب!

مضيتُ إلى المطبخ كأنما أتوسّل جُدرانَه أن تمنحني صدى لصوت أمي الذي أعرف. أقتعدُ كرسياً خشبياً قصيراً القوائم، أتذكّر أمّي، حينما كانت في صحّتها، في موضعي تغسلُ ملايسي قبل الشروق. لطالما كانت تُغني بصوتٍ رخيمٍ بتسلّلٍ في ردهات البيت العربي:

نحت أنا لو أبرأ، نوح الحمامة، نحت أنا لو أبرأ

ما يطيق الصّبرا، يا مَلّ قلب، ما يطيق الصّبرا

سألتها ذات يوم. أمّي! لماذا ينوح الحمام؟ تجاوزت سؤالِي. عدني ألا تغيب أنتَ أيضاً يا منوال، وإن غبت فكُن مثل حمام الدار لا يُطبلُ غياباً. لذتُ بصمتي قبل أن أُجيب. أعدّك. أستطردت. لماذا ينوح الحمام؟ ابتسمت لي مُضَيِّقَةً عينيها تُفكّر. أجابت. اسأله! وكلّما ذهبْتُ إلى الحَمَامِ في السّطحِ أسأله سببَ نوحه، ألجمني سحرُ هديله عن السّؤال.

خرجتُ من المطبخ الأخرس. لا أحد غير قُطنة يُنصِتُ إلى

شكواي ويُصغي إلى كلماتِ خوفِي على أُمِّي ومُقتي لوالدي.
 ركضتُ إلى حوشِ الغنم حيث فاتنتي، بنت فايقة، تُقعي أرضًا
 تكشِفُ عن ساقِها المنفرجتين. تخلِطُ الحبوبَ في وعاءٍ كبير؛ ذرة،
 شعير، حَبَّاتِ حُمُصٍ وبذور دَوَّارِ الشَّمْس. أحملُ في تفاصيلِ جسدِها
 من وراء البابِ الموارب. يدفعني الفضول لاكتشافِ غير المألوف في
 جسدي. أغيبُ مع اتِّساع فتحة ثوبِها عند الصِّدر. أُمعنُ النظرَ أبحثُ
 عن شاماتٍ أربع تجمَّعت فوق نهدِها الأيسر. أنا أُحبُّ قُطنة. هي
 تدري. هي تمنحني شيئًا مما أصبو إليه نظرًا. مُتعة اكتشافِ جديد.
 تُحب «العَبدَةَ» يا عبد؟! التفتُ إلى صاحبِ الصَّوتِ ورائي. كان والدي
 يتسمُّ حانِقًا. مردُّ «العَبدَةِ» إلى عبدٍ بأويها! راحَ يتظاهر بأنه يعدُّ أوراقًا
 نقدية بين كَفِّهِ. ما اشتريتهما من أجلِ شيءٍ إلا خدمتهما! كانت كلمة
 عبدٍ مألوفة مثل أي كلمة دارج استخدامها كلَّ يوم، هي سِمَةُ أولئك
 الذين يشترِبهم والدي، كما يقول، بحرُّ مالِه. غير المألوفِ هو أن يكون
 هناك عبدٌ جديدٌ، لا أعرفه، ينافسني حظوة قُطنة، تميلُ إليه، يأخذها
 بعيدًا. لماذا تصيرُ كُلُّ الطُّرُق إلى فراق؟

عاد والدي إلى جزيرته قاطعًا وعدةً بزيارةٍ في أجلٍ لا يُسميه
 أبدا. قرفصتُ أسفل السِّلَمِ ألوذُ بضيق المكانِ كأنما أقترُبُ مني أكثر.
 تهجِسُ أشياء في صدري. سوف تُشفى أُمِّي، تعودُ أطرافها الأربعة كما
 كانت، وتبقى قُطنة قريبة دائمًا. ضممتُ ساقِيَّ إلى صدري. أسندتُ
 جِبيني إلى رُكبتَي مُغمَضِ العينين أهمس بتعويدة حمام الدَّارِ وأفعالها
 مثل صلاة. أكرِّرُ القولُ أغذي إيماني أنكئ على أبوابِ ألفتها. عودة
 والدي زائرًا. استقرار المراكبِ الخشبية تُعانق أرصفة المرسى بعد

رحلاتِ أسفارٍ طويلة. طلوع الشمسِ تقذفُها أمواجُ الشُّروقِ بعد غيابها في الصَّحراءِ القصِيَّةِ غربًا. بزوغ نجم سهيل بشيرُ المطرِ كُلِّ عامٍ في أوَّله. عودة أسراب الطيور المُهاجرة؛ الهدُّدُ والخُضْبيري وأُمُّ سالم والحَمَّامي والزُّماني والقُوبع تنثرُ أصواتها وألوانها ربيعًا، تبني أعشاشها وقتَ تَلَفْظُ الأرضِ كمأها الذي أُحِب. مِزاجِ الشَّمسِ حينما يلين وتحنو على الكائنات على غير عادة، اخضرار الأرض بفعلِ أوراقِ الحمبزان وتفتُح بتلات النُّوير كأن شُموسًا صغيرة تحملُها سيقان دقيقة داكنة الخُضرة تكسِرُ بيسَ البرِّيَّة. حتى أُمُّ علي، دعسوقي الحمراء المرقطة، كائني الأثير، لا تُطِيلُ غيابًا ولا تتخَلَّف عن موعِدِها تصحبُ فراشات الرِّبيع، تزورُنا تُكْمِلُ ألوانَ لوحةٍ إطارُها قوش المطر.

نثَّت هواجسي روائحها المحبَّبة؛ خُزامى، تربة رطبة، أريج عُشبي وفوخٍ لقاحٍ .. أزكمت أنفي رائحةً أفلتتها جسدي أنستني صورًا غصَّ بها رأسي. رحتُ أضرب الهواء حولي وعيني صوب بابِ حوش الغنم خشيةً مرور قُطنة. هربتُ راكِضًا إلى المطبخ.

منوال

.. اقترب منوال من نافذته المفتوحة مُحترسًا. استدار ببطءٍ يواجهُها بصدِّره. كان مؤمنًا بأنها سوف تحمي صغيرها وقد خرجا من البيضتين وتعرَّفت إليهما وألفتهما. مدَّ كفَّه مبسوطةً بفُتات الخبز. طارت فيروز. بهت الكهل. تعالي! ..

«كُلُّ الْأَلْوَانِ أَزْرَقُ»

سنوات مضت على فجيعة المرسى، وأنا أكتب وأكتب، وأكتب. لا جدوى. أنا الذي أقتعني بالتداوي بالكتابة، انصرفت عنها، صرت أحمل كُرَاسَةَ الرَّسْمِ والألوان إلى ساحلِ الفقدِ، أمضي أوقاتي أرسم ما يُسبِّهني وأرفع اللوحاتِ وأواجهُ البحر. كُنْتُما تُجَبَّانِ ما أرسم. ما بالكما لا تُجيباني. الله! حلوة يبه. يمرُّ الناسُ من حولي، تُراوح ملامِحُهُم بين خوفٍ وشفقة. يهمسُ أحدهم لصاحِبَتِهِ. مسكين، مجنون. أخفضُ ذراعِي أتملِّى في اللوحةِ الزَّرْقَاء. رؤوسُ مُزدوجة وعيونُ جاحِظَة وأطرافُ مبتورة، هذا لا يُشبه ما كنتُ أرسمهُ للصَّغِيرين. هذه رسومٌ مُنفِرةٌ تُشبهني أكثر مما أبدو عليه. أدير للبحرِ ظهري. يتناهى إليَّ صوتُ منيرةٍ من أَمْسٍ بعيد. ار كض. ار كض يا جبان! أطأطئ. حتى الرِّكض لم يعد مُمكنًا يا منيرة. سوف أركض، لو أن الرِّكض يُفضي إلى مكان!

منوال

.. اقتطع الكهلُ جزءًا من الخيط، عقدَ طرفه في منتصفِ دُبُوسٍ شالِه قبل أن يحبو نحو دَكَّةِ النافذة. حملَ أحدَ الفرخين في كفِّه يتحقَّق من جنسه.

«الْأَسْمَاءُ عَتَبَاتُ الْخُلُودِ»

استلقت منيرة على ظهرها في سرير العيادة مكشوفة البطن. لحافها الأبيض يُغطي ساقها. راحت المُمَرَّضة، التي صارت تعرفنا

لكثرة ما تردّدنا على العيادة، تدهنُ بطنها بمادّة مُزَلّقة أثناء ارتداء الطبيب قفّازاً أزرق يُمسِكُ بجهازٍ بحجم قبضة اليد، يُمرّره على بطنها ببطء. رحنا نُحمِلُ في الشّاشة إلى يسار السّرير، نتطلّع لمعرفة جنس ما نُخفيه في أحشائها.

كان مجيء التوأمين بعد سنوات انتظار وتدخلٍ طبّي ومُلازمة منيرة السّرير بمنزلة مكافأةٍ لم نكن نحلمُ بها، نحن اللذان ما حلمنا بأكثر من مولود؛ ذكرًا كان أم أنثى، لا يهم. طفرت الدّموع من عيني منيرة وهي تُعانقني وقت أخبرنا الطبيب أوّل مرّة بحملها. لن أنتحرك من فراشي إلى حين ولادتي. قالت وهي تعصرُ كفي. غالبتني دموعي وأنا أفكر في حياةٍ مُقبلة. سوف أبقى إلى جانب الفراش وأكون أطرافك الأربعة. تحشرج صوتي وأنا أحدثُها وفي خلدي صورة أُمي على فراش المرضِ تلوّم والدي. بترت أطرافي! كنتُ أشعر بعناقي لـ منيرة أني أعانق عائلةً توشك أن تكون، مُتحرّراً من كلّ خسارات عائلةٍ كانت.

منذ دخول منيرة شهرها الرّابع ونحن نتردّد على العيادة لمعرفة جنس التوأمين من دون فائدة. اتخذ كلّ منهما حرفاً على الشّاشة المغبّسة. A و B. سرت قشعيرةٌ في جسدي وقت أسمعنا الطبيب خفق قلبيهما في المرّة الأولى. يبدوان في صحّة جيّدة. حال الحبل السّري دون تيقّن الطبيب. لعلّ A ذكرًا، أو ربّما ذلك الشيء المُتدلي لا يعدو كونه جزءاً من الحبل السّري. الأشياء ليست كما تبدو دائماً. يضحك. يُواصل تحريك جهازه يُحمِلُ في الشّاشة. يستحيلُ تحديدُ جنس B وهو مُطبّقٌ فخذيه على شيء. خرجنا من دون إجابة. لفنا

الصَّمْتُ في السَّيَّارَةِ ووجيبٌ قَلْبِنَا يُحَاكِي خَفَقَ الصَّغِيرِينَ في رَأْسِنَا.
في الزِّيَّارَةِ الثَّانِيَةِ اسْتَمَرَ B في إِخْفَاءِ عَضْوِهِ بَيْنَ فَخْذَيْهِ الْمُطْبَقِينَ في
حِينَ أَدَارَ لَنَا A ظَهْرَهُ.

كَانَتْ تُزَعِّجُنِي الإِشَارَةُ لَهُمَا بِحَرْفَيْنِ كَأَنَّهُمَا أَيُّ شَيْءٍ، وَكَنْتُ
أَنْتَظِرُ بِفَارِغِ الصَّبْرِ التَّعَرُّفَ إِلَى جِنْسِيهِمَا لِأَسْتَعِيزَ بِالْإِسْمِ عَنِ
الْحَرْفِ. فِي زِيَارَتِنَا الثَّالِثَةِ لِلْعِبَادَةِ صَارَ الْأَمْرُ أَكْثَرَ وَضُوحًا. ضَحِكَ
الطَّبِيبُ يُشِيرُ إِلَى مَا بَيْنَ فَخْذَي أَحَدِهِمَا. ذَكَرَ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ. التَفَتْتُ
إِلَيَّ مَنِيرَةً بِاسْمَةٍ وَقَدْ تَخَضَّعَتْ عَيْنَاهَا وَاحْمَرَّتْ أَنْفُهَا. رَحْتُ بِنَظَرِي
أَمْعُنُ التَّحْدِيقَ فِي الشَّاشَةِ. هَمَسْتُ. رَحَّالُ! قَرَّبَ الطَّبِيبُ سَبَابَتَهُ إِلَى
مَا بَيْنَ فَخْذَي الْجَنِينِ الثَّانِي. التَفَتْتُ إِلَيْنَا يَسْأَلُ كَمَنْ يُجِيبُ. وَاضِحٌ؟
زَمَّتْ مَنِيرَةً شَفَتَيْهَا وَقَدْ أَزْدَادَ أَنْفُهَا احْمِرَارًا. غَطَّتْ وَجْهَهَا بِكَفَّيْهَا
تَنْخَرُطُ فِي بَكَاءٍ. ابْتَسَمَ الطَّبِيبُ فِي حَيْرَةٍ عَاقِدًا حَاجِبَيْهِ يَسْأَلُهَا عَنِ
حَالِهَا وَقَدْ عَلِمَتْ بِمَا كَانَتْ تَجْهَلُ. كَيْفَ أَنْتِ الْآنَ؟ أَجَابَتْهُ. زِينَةُ.
لَمَعَتِ الْكَلِمَةُ فِي رَأْسِي وَاسْتَطَعَمْتُ لَفْظَهَا وَأَنَا أَقُولُ: الْوَلَدُ رَحَّالُ،
وَالْبَنْتُ..

منوال

زِينَةُ.. زِينَةُ! رَدَّدَ مَنْوَالٌ وَهُوَ يَنْشِجُ.

..

.. تَسَمَّرَ أَمَامَ مِرَآئَتِهِ. أَفْزَعَتْهُ صُورَتُهُ عَلَى وَجْهِهَا وَهُوَ يُحَدِّقُ فِيهَا.
مَنْ أَنْتِ؟ هَا؟ أَطَالَ النَّظَرَ فِي انْعِكَاسِهِ. بَشَرْتُهُ شَاحِبَةً دَاكِنَةً وَهَالَاتٍ
سُودَاءَ تَحِيطُ عَيْنِيهِ الْحَمْرَاوِينَ بِلَوْنِ الدَّمِّ، وَشَعِيرَاتٍ رَمَادِيَّةٍ طَالَتْ فِي

ذَقْنِه . رَفَعَ كَتِفَيْهِ نَافِخًا صَدْرَهُ عَاقِدًا حَاجِبِيهِ . أَطْبَقَ جَفْنَيْهِ ، ثُمَّ بَاعَدَ بَيْنَ
ذِرَاعَيْهِ يَضْرِبُ بِهِمَا الْهَوَاءَ كَأَنَّهُ يُحَلِّقُ مُبْتَسِمًا . صَارَ يَذْرُوعُ الْحَمَّامَ يَدَوْرُ
مُغْمِضًا عَيْنَيْهِ . حَمَامُ الدَّارِ لَا يَغِيبُ .. لَا يَغِيبُ يَا أَزْرَقَ .. غُرُوووغ!

* * *



صباح رابع

«..نهض عن الأرض. وقف على أطراف أصابعه ينظرُ بعيداً. ابتلعتُهما الرُّرقة. لم يعد يراهُما. أخذَ يُلَوِّحُ بيديه. يصيحُ بهما: رَحَّال.. زينة! ثم أطبق أسنانه على طرفِ ثوبه وراح يركضُ كالمجنون!».

جاء كابوسه صامتاً إلا من نداء آتٍ للصَّغِيرَيْن، وصوتُ نغمٍ قديمٍ يَراوَحُ بين هديلٍ وأغنيةٍ تتردَّد في ردهات البيت القديم. شَخَّصَتْ عيناه ينظرُ إلى سقفِ غرفته. أمي؟! ..

«لوعَةٌ بهيَّة»

صوتُها شجيٌّ عذب. يتسلَّل من المطبخ القديم. ينتشر في البهو غير المسقوف يُصافِح النسمات الباردة. أطلُّ من السَّطح على بهو البيت شارد الذَّهن. أمي لا تتحدَّث كثيراً. أمي تُغني دائماً. أنصتُ إلى صوتها في حين هديل الحمام يتزايد من حولي. أُمِرُّ نظري على الأشياء الصامِتة في بهو البيت العربي القديم. جرَّة الماء في الزاوية. بساط الحَصِير. الصورة العائلية الناقصة في الجدار. صندوق من خشب الصَّاج مُطعَّم بمسامير ونقوشٍ ذهبيةٍ يستريحُ فوقه وعاءان؛ لِدِيسِ الثَّمرِ أحدهما والآخر للخلِّ. سجَّادة وثوب صلاة. مسانِد صوفيَّة ومنقلة فحمٍ وقِدْرٌ معدنية، وبئرٌ معجونة تمنحُ ماءً عذباً متى ما اشتهت وماءً مالِحاً إن تعكَّرت مزاجُها.

كُلُّ الْأَشْيَاءِ صَامِتَةٌ فِي الْبَهْوِ تُنْصِتُ إِلَى غَنَاءِ أُمِّي. أَغْمَضْتُ عَيْنَيَّ
أُْمَعْنَ الْإِصْغَاءَ:

لَوْ رَجَعْتُ مَضْنُونِي، نَذَرًا عَلَيَّ، لَوْ رَجَعْتُ مَضْنُونِي

ثُمَّ أُعِيدَ شَهْرًا، وَأَصُومُ عَامَيْنِ، ثُمَّ أُعِيدَ شَهْرًا

نَحْتُ أَنَا لَوْ أَبْرَأَ، نُوحُ الْحَمَامَةِ، نَحْتُ أَنَا لَوْ أَبْرَأَ

لَمْ أَعُدْ أَسْأَلُ نَفْسِي مَاذَا تَقُولُ الْأَغْنِيَةُ؟ لِمَاذَا تَنُوحُ أُمِّي؟ لَعَلَّهَا
تَبْرَأُ مِنْ مَاذَا؟ وَمِمَّ مَلَّ قَلْبُهَا الَّذِي لَمْ يَغْدُ يَطِيقُ صَبْرًا؟ كُنْتُ أَصْغِي إِلَى
الصَّوْتِ وَحَسَبِ. غَنَاءُ أُمِّي يُشْبِهُ بَكَاءَ شَجِيئًا. فَتَحْتُ عَيْنَيَّ. التَفْتُ إِلَى
الْحَمَامَاتِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي السَّطْحِ. لِمَاذَا تُغْنِي أُمِّي دَائِمًا؟ مَرَّتْ وَاحِدَةً
مِنْ فَوْقِي تُلْقِي إِجَابَتَهَا: اسْأَلْهَا! مَضَيْتُ أَسْرَعُ الْخُطَى نَحْوَ السَّلَمِ.

منوال

.. استدار يُطَلُّ بِنَصْفِ وَجْهِهِ. يُطِيلُ النَّظَرَ إِلَى فَيُرْوِزُ الْمُنْشَغَلَةَ
عَنَاءً بِصَغِيرِهَا. الْأُمُومَةُ أَمْرٌ عَظِيمٌ. وَلَكِنْ! لِمَاذَا تَخَافُ الْأُمَهَاتُ؟ أَنَا
أَكْرَهُ الْخَوْفَ. هُوَ لَا يَتَذَكَّرُ مِنْ أُمِّهِ إِلَّا صَوْتَهَا؛ غَنَاءً أَوْ خَوْفًا..

«الْغَنَاءُ زَادَ الرُّوحَ فِي الْأَيَّامِ الْحَزِينَةِ»

وَقَفْتُ عِنْدَ بَابِ الْمَطْبَخِ أَحْمَلُ سَوْالًا حَمَلْتَنِي إِيَّاهُ الْحَمَامَةُ لِأُمِّي.
لِمَاذَا تُغْنِي دَائِمًا؟ هَمَمْتُ أَتَجَاوِزُ عَتَبَةَ الْبَابِ دُخُولًا لَوْلَا خَشْيَتِي مِنْ
أَنْ أَقْطَعَ غَنَاءَ أَحِبَّتِهِ. أَجَلْتُ سَوْالِي. رَحْتُ أَصْغِي. أُمَعِنُ النَّظَرَ فِي
تَفَاصِيلِ أُمِّي مُنْفَرِجَةِ السَّاقَيْنِ أَمَامَ الثِّيَابِ الْمُنْقَوَعَةِ فِي طَسْتِ الْغَسِيلِ.
تَرْفَعُ صَبِيئَةً نَحَاسِيَّةً، كَأَنَّمَا تَمْسِكُ دَفًا، تَضْرِبُ عَلَى ظَهْرِ الصَّبِيئَةِ

بإيقاعٍ منتظم. بدت في عالمٍ آخر بعيد. ثوبها واسعٌ دائماً أسود، يرتفعُ إلى منتصفِ ساقَيها الملطَّختين بالرغوة. شعرها مفروقٌ في منتصفِ رأسِها. جديلتاها طويلتان تنتهيان عند خاصرتها. أغيبُ في ملامحها؛ دقةً أنفها، غمَّازة خدَّها الأيمن وقتَ تبتسم، اتساع جبينها وانحناء حاجبيها. تمايل بجذعها كالغائبة عن وعيها، مُغمضةً عينيها، تهزُّ رأسها تجاوباً مع ضرباتها على الصينية ولحن أغنيتهما الشَّجي. تُغني كأنما تتشرُّ سحرًا في المكان الموغلِ صمْتًا يُصغي إلى غناء المرأة الحزينة. كيف للحزن أن يتَّخذَ من الجمالِ ثوبًا على هذا النحو من السَّحر؟! وكيف للحزن إياه أن يُسقطُ أمِّي، بعد ذلك، طريحة الفراش؟

عبّروا مضموني، يا أهل المراكب، عبّروا مضموني

يا نظير عيوني، ودّعتك الله، يا نظير عيوني

انصرفْتُ عن فكرة السؤال عن سببِ غنائها، ما دامت الإجابة عند أهل المراكب. انبثق في رأسي سؤالٌ آخر. هل يعبر إخوتي البحر عودةً مع أهل المراكب في الأغنية؟ أحسستُ بحاجةٍ ملحةٍ للحديث، لكنني لا أنوي قطع غناء أمِّي التي بدت لي كأنها تُمارِسُ طقس عبادة. لا أحد يُبادلني الكلام في البيتِ القديم. أدتُ ظهري لأُمِّي الغائبة في مطبخها. ردّدتُ في سرِّي: قُطنة.

منوال

.. عيناه مفتوحتان على البعيد لكنه ينظرُ إلى ما يومضُ في رأسه؛

سفينة عملاقة توليه مؤخرتها تمضي مُبحرةً عند تلاقي الزُّرقتين..

«فَتَقَّ فِي ثَوْبٍ حَقِيقَةٍ وَرُقَعَةٍ كَذِبٍ»

أَشْتَاقُ إِلَى الْأَلْوَانِ فِي ثِيَابِ أُمِّي. مَسَحَتْ ابْنَةً فَايِقَةً عَلَى رَأْسِي وَهِيَ تُنْصِتُ إِلَى بُوْحِي. مَضَى وَقْتُ طَوِيلٍ وَأُمِّي تَلْبَسُ السَّوَادَ وَلَا تَحُلُّ جَدِيلَتَيْهَا، تَنُوحُ مِثْلَ الْحَمَامَةِ فِي أَغْنِيَتِهَا وَتَتَحَرَّى خَبْرًا مَعَ أَهْلِ الْمَرَائِبِ الَّتِي تَعُودُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ مِنْ دُونِهِمْ. نَظَرْتُ قُطْنَةً إِلَى عَيْنِي صَامِتَةً. مَتَى تَوْقِفُ أُمِّي غِنَاءَهَا الْحَزِينَ وَتَرْتَدِي الْأَلْوَانَ ثَانِيَةً؟ قُطْنَةُ لَمْ تَزَلْ تَنْظُرُ إِلَيَّ، لَكِنْ بِشَيْءٍ مِنْ حُزْنٍ. هَرَبْتُ بِنَظْرِي عَنْ نَظَرِهَا مُطَرِّقًا. أَمْسَكْتُ بَعُودَ بَرَسِيمِ يَابَسٍ. رَحْتُ أَرْسَمُ خُطُوطًا فِي الثَّرَابِ بَيْنَ قَدَمَيَّ. مَنَوَالِ! لَنْ تَعُودَ أَمْتُكَ كَمَا كَانَتْ إِلَّا بَعُودَةً إِخْوَتُكَ! اغْرُورِقْ عَيْنَايَ. وَهَلْ يَعُودُونَ؟ نَهَضْتُ تَنْفُضُ الْغُبَارَ وَأَعْوَادَ الْبَرَسِيمِ مِنْ ثَوْبِهَا. أَلَسْتُ تَقُولُ إِنْ حَمَامُ الدَّارِ لَا.. لَمْ أُمَهِّلْهَا تُكْمِلُ. أَنَا لَا أَقُولُ! قَطَّبْتُ حَاجِبَيْهَا تَسْتَفْهَمُ. أَشَرْتُ إِلَى صَدْرِي. شَيْءٌ هُنَا يَقُولُ. أَسْأَلْتَنِي لَا تَكْفُ حَرَكَتَهَا فِي رَأْسِي. لِمَاذَا غَادَرَ بِهِمْ أَبِي؟ تَخَصَّصْتَ وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيَّ مُشْفِقَةً. أَبُوكَ؟! اْنْدَفَعْتُ أَلْقِي بِسُؤَالٍ آخَرَ. لِمَاذَا لَمْ يَأْخُذْنِي مَعَهُ؟ أَطْلَقْتَ زَفْرَةً طَوِيلَةً أَعَقَبَتْهَا بـ: بِقَاوُكَ مَعَ أَزْرَقِ مَرْتٍّ، وَطَرَدَكَ أَمَامَ النَّاسِ أَشَدَّ مَرَارَةً! لَمْ تُمَهِّلْنِي أَفَوْهُ بِكَلِمَةٍ. أَوْلَنْتَنِي قُطْنَةُ ظَهْرَهَا مُتَبَعِدَةً. رَحْتُ أَحْدَقُ فِيهَا وَهِيَ تَمَائِلُ شَارِدِ الدَّهْنِ.

مَنَوَالِ

.. ارْتَمَى بِظَهْرِهِ عَلَى سَرِيرِهِ وَأَطَالَ النَّظَرَ فِي السَّقْفِ. لِمَاذَا أَنْتَ صَامِتٌ هَكَذَا؟ هَا؟ أَنْتَ تَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ.. كُلَّ شَيْءٍ. أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ.

«اسمها فيروز»

فتحتُ عينيَّ بصعوبةٍ بسبب جنون الغبار. أخذني والذي معه إلى المقبرة فورَ عودته من الجزيرة مُضطربًا. أخوالكَ ينتظرون. من الذي مات؟ لم أسأل. أحكم والذي لثام وجهه. حتَّ خطاه نحو رجالٍ يمضون نحو وجهةٍ مُسرعين. كنت أدري أنه يومٌ صعبٌ مُذ أخبرتني بئزنا المجنونة بِملجها فجرًا. أين إخواني؟ سألته. يقطعون البحرَ عائدين، سوف يلحقون بنا. أجاب من وراء لثامه. سألته. ألن نزور أمي في المستشفى؟ لم يُجر جوابًا. الصَّحراءُ ساكنةٌ إلا من صفيح الرِّيح وعزيف الرِّمال وحفيف أشجار السَّدر المنتصبه بين شواهد القبور. وقفتُ أفركُ عينيَّ الحمرأوين وطعمُ الغبارِ في شفتي. تخلفتُ عن الجمعِ أمامي. الرجال يحملون نعشًا، يخوضون في الغبار، يمضون نحو تَلٍّ صغير. بالكاد أميّرُ والذي من بينهم، بنحوه وطول قامته، رغم لثامه. أنزلوا النعشَ قرب حُفرةٍ وراء التلِّ. أدتُ ظهري إلى الجنازة أنظرُ إلى السَّماء. قيل لي إن من يموت يمضي صعودًا إلى الرُّزقة هناك. من قال لي ذلك؟! لا أدري كم مكثتُ في شرودي حتى تَبْهني أحدهم مُناديًا: يا ولدا مضيتُ نحو الرِّجال. راح بعضهم يُفرغ دلاء ماءٍ على التلِّ الرَّملي. كنتُ صغيرًا، وهي مرّتي الأولى في المقبرة. أنظرُ إلى أحشاء القبرِ وقد صارت تَلًا. قريبًا يعود ثانيةً إلى الأسفل ويُسَوَّى سطحُ القبر بالأرض وينتهي كلُّ شيء. انحني رجلان يخلطان الماء بالثَّراب، يعجنان الطينَ، يصنعان كرياتٍ يُناولانها والذي في الأسفل يَرُصُّها حولَ جسدٍ ساكنةٍ القبر. مدَّ أحدهم عصا المسحاة إليه يعاونه على الصُّعود ما إن فرغ من عمله. أخذ الرجلُ يُبَثُّ ورقةً كرتون تحملُ كلماتٍ كنتُ أصغر من أن

أَفَقَهُ حُرُوفُهَا. الْوَرَقَةُ الْكَرْتُونِيَّةُ بَعْدَ سَاعَاتٍ صَارَتْ شَاهِدًا رِخَامِيًّا وَقَدْ
عَدْتُ مَعَ وَالِدِي إِلَى الْمَقْبَرَةِ. كَانَ يَحْمِلُ الشَّاهِدَ الرِّخَامِيَّ يَمْضِي بَيْنَ
الْقُبُورِ مُتَلَثِّمًا. أَبْطَأَ خَطْوُهُ قَبْلَ أَنْ يَتَوَقَّفَ عَلَى مَبْعَدَةٍ أَمْتَارٍ مِنَ الْقَبْرِ وَأَنَا
أَطَاطِيٌّ وَرَاءَهُ. دَفَعَنِي تَوَقُّفُهُ الْمَفَاجِئُ لِأَنْ أَرْفَعَ رَأْسِي أَنْتَظِّلُ لِمَا يَجْرِي.
الْغُبَارُ يَلْفُ كُلَّ شَيْءٍ. بِالْكَادِ أُمِيزُ ثَلَاثَةَ رِجَالٍ مِلْثَمِينَ وَامْرَأَةً تَرْتَدِي
السَّوَادَ تُغَطِّي وَجْهَهَا بِجَزءٍ مِنْ عِبَاءِهَا، يُقْعُونَ حَوْلَ الْقَبْرِ فِي صَمْتٍ.
مَضَى وَالِدِي صَوْبَ الْأَرْبَعَةِ. أَزَالَ وَرَقَةَ الْكَرْتُونِ، انْحَنَى يَثْبُتُ الشَّاهِدَ
الرِّخَامِيَّ مَكَانَهَا فِي التَّرَابِ، وَكَأَنَّهُمْ غَيْرُ مُوجُودِينَ. اكْتَفَى يَهْمُسُ وَسَطِ
انْشِغَالِهِ: تَأَخَّرْتُ! تَأَخَّرْتُ كَثِيرًا!! أَفَلَتَ الرِّجَالُ شَهَقَاتٍ يَعَانِدُونَ بِهَا بَكَاءً
فِي حِينَ خَارَتِ الْمَرْأَةُ فِي نَشِيجٍ مَرِيرٍ. نَهَضَ أَحَدُ الْفَتَى، يَبْدُو الْأَكْبَرَ،
يُصَفِّقُ كَفِّهِ يُزِيلُ غُبَارَ الْقَبْرِ الْعَالِقَ فِيهِمَا. أَوْمَأَ لِلشَّابَّيْنِ وَالْفَتَاةِ قَبْلَ أَنْ
يَنْصَرِفَ. تَبِعَهُ الثَّلَاثَةُ مُطَرِّقِينَ. جَعَلْتُ أُرَاوِحَ نَظْرِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ وَالِدِي
وَقَدْ تَأَكَّدَ لِي مِنْ يَكُونُونَ، وَلَكِنِّي سَأَلْتُ: مَنْ يَكُونُونَ؟ أَجَابَنِي بِغَيْرِ
اِكْتِرَاثٍ وَقَدْ فَرَّغَ مِنْ تَثْبِيتِ شَاهِدِ الْقَبْرِ: حَمَامُ الدَّارِ.

كَنْتُ أَطْبِقُ قَبْضَتِي الصَّغِيرَةَ عَلَى ثَوْبِ وَالِدِي أَثْنَاءَ عَوْدَتِنَا وَأَسْأَلُهُ
عَنِ الْحُرُوفِ السَّودَاءِ عَلَى صَدْرِ الشَّاهِدِ الرِّخَامِيِّ. أَجَابَنِي بِآيَاتٍ مِنَ
الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَهُوَ يَوَاصِلُ الْمَشْيَ بَيْنَ الْقُبُورِ؛ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ
ارْجِعِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. أَمْسَكَ لِسَانَهُ عَنْ بَقِيَّةِ حُرُوفٍ نُقِشَتْ
أَسْفَلَ الْآيَةِ. أَحْكَمْتُ أَطْبَاقَ كَفِّي عَلَى ثَوْبِهِ وَأَنَا أَشُدُّهُ. مَاذَا بَعْدَ؟ أَسْرَعَ
مَشْيَتِهِ وَهُوَ يُفْضِي كَأَنَّمَا يَهْرُبُ مِنِّي: فَيُرَوِّضُ مَاضِي حَمْدَانٍ. سَقَطْتُ
عَلَى ظَهْرِي أَغْمَضْتُ عَيْنِي عَلَى زُرْقَةِ السَّمَاءِ الْمَغِيرَةِ.

.. بسطَ كَفَّهُ أمامَ وجهِهِ كاشفًا عن حُبوبِ الشَّعِيرِ. أخذَ يتشَمَّمُها
 بنَفَسٍ عميقٍ. سَرَتْ رَعشَةٌ في جسدِهِ. نظرَ إلى صُورَتِهِ في المرآةِ
 يتحقَّقُ من كونه هُوَ. العروقُ الحمراء تتشَرُّفُ في عَينِهِ الشَّهلاوين.
 بدا لِنَفْسِهِ شَخْصًا آخَرَ. انحنى على كَفِّهِ المبسوطةِ ثَانِيَةً يَلْتَهُمُ الشَّعِيرِ.
 يعاودُ النَظَرَ في المرآةِ وهو يطحنُ الحُبوبَ بينَ أسنانه وعَيناهُ بلونِ
 الدَّم. غرووغ.. غرووغ!

* * *



صباحٌ خامِس

167

«.. اصفرَّ وجهُهُ وهو ينظرُ إلى غيابهما الوشيك. أرادَ أن يمضي وراءهما في التَّيه الأزرق لعلَّهُ يُعيدهما إلى حُضنه. نهَضَ عن الأرض. وقفَ على أطرافِ أصابعه ينظرُ بعيدًا. ابتلعتُهما الزُّرقة. لم يُقدِّراهما. أخذَ يُلَوِّحُ بيديه. يصيحُ بهما: رَحَّال.. زينة! ثم أطبقَ أسنانه على طرفِ ثوبه وراح يركضُ كالمجنون!..»

.. فتحَ عينيه عن آخرهما.
.. كأنه انتبه لتوِّه إلى صمتِ أيامه، عزلته في وحشة المكان.
مرَّرَ كَفَّهُ على المساحة الفارغة من سريره البارد. وضع كَفَّهُ الأخرى تحت منامته الرَّمادية يُمرِّرها على جسده.
.. مالَ على جانبيه يُمسِكُ بالهاتف. لم يعث بأزراره يُهاثِفُ طليقته. بدا شارِدَ الذهنِ يُحمِلُ في السَّماعة. أعادها إلى موضعها ثم راح يحدِّقُ في شرخ سقفيه.
«ويصيرُ الصَّمْتُ جوابًا»

في الثالثة عشرة كنت، أو الرابعة عشرة ربما، أمضيث وقتًا طويلًا في حوش الغنم، مُندسًا تحت لوحٍ من الصَّفِيحِ أحطته بالواح خشبية كنتُ قد شيدته مكانًا سرِّيًّا، في غفلةٍ من عمَّتي التي تركت بيت عمِّي وانتقلت للعيش معي في بيتنا بعد وفاة أُمِّي. لعلَّها تدري بما يجري

وتغض الطرف عن انتباصي في الحوش ساعات الظهيرة كل يوم. تضمُّ ابنة فايقة ساقها إلى صدرها إلى جوارِي تُنصِتُ إلى أسئلتي. أصحِّحُ ما يقوله والذي. قاطعتني بنصف ابتسامة تستوضح. مردُّ «العبدية»؟ أطرقتُ مُبتَلِعًا لإجابتي، أنظر إلى أخمصي قدَميها الملطختين بالحناء. أزرق يعرف أن العبيد لا يستقرون في مكان، يباعون ويشترون مثل أي شيء. كان بينكم يغصُّ بالعبيد الذين يتاجر بهم، رجالًا ونساء. أطرقتُ. صحيح، أذكركم فيما يُشبه حُلْمًا، صامتين، طردهم والذي من البيت، ولكن لماذا؟ أشاحت بوجهها صوب الباب المؤدي إلى البهو وقالت. كان غاضبًا على أحدهم، لا أظنك تتذكره، طويلٌ أشهل العينين أصلع أسمر. خالفه في أمرٍ ما ربَّما، طرده وألحق به البقية. سألتها. وما شأن البقية؟ لَزِمَتْ صمتها قبل أن تقول. أزرق لم يعد يُجِبُّهم. زَفَرْتُ بضيق. والذي لا يُحِبُّ أحدًا! ابتسمت زامة شفتيها بأسف وهي تهزُّ رأسها. أزرق يُحِبُّ أمك عِرزال. نظرتُ إلى شفتيها ساهمًا وقد كسنتهما صبغة بُنيَّة تُناوِشُ احمرارًا. كيف اكتسبتا هذا اللون؟ ابتسمت كاشفةً عن أسنانٍ بيضاء ثلجية. تدشُّ كفَّها بين نهديها. أطبلُ النظر في شاماتها الأربع فوق نهديها الأيسر. يُدَاهِمُنِي اضطرابي. تمدُّ لي كفَّها المُحنَّاة بقطعةٍ نسيجيةٍ صغيرةٍ من الدِّيرَم، لحاء شجرة الجوز الهندية. تفحصتها. تُشَبِّهُ القرفة! هزَّتْ رأسها. ليست قرفة. رحتُ أَقْلُبُها في كَفِّي. يُمَكِّنُكَ أَنْ تحتفظَ بها، قالت باسمِة. تشمَّمْتُ رائحتها. أخفيْتُها في قبضة يدي. كيف هو طعمها؟ بهتت ابتسامتها تنظرُ إليّ. تذوّقه، قالت وهي تمعنُ النظر في عيني. أدنّت وجهها إلى وجهي. تسارعت دقات قلبي فيما كنتُ أنظرُ إلى

شَفَتِيهَا الدَّاكِنَتَيْنِ تَقْتَرِبَانِ. نَفَحَتْ رَائِحَةَ الرِّيحَانِ فِي ثِيَابِهَا. لَمْ أُغْمِضْ عَيْنِي كَمَا فَعَلْتُ إِنَّمَا فَتَحْتُ عَيْنِي عَلَى وَسْعِهِمَا. أَحَبَبْتُ مَا تَذَوَّقْتُ؛ دَبِيرَ مَا كَانَ أَمَ شَيْئًا آخَرَ.

ابْتَعَدَتْ بِصَدْرِهَا إِلَى الْوَرَاءِ. التَفَتَتْ إِلَى ثِيَابِ فَايِقَةٍ عَلَى حَبْلِ الْغَسِيلِ. جَفَّتْ ثِيَابُ أُمِّي، لَعَلَّهَا تَأْتِي فِي أَيِّ وَقْتٍ.

منوال

.. أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ وَتَطِيرَانِ.. زِينَةٌ.. رَحَالٌ.. عِدَانِي بِأَنْكُمَا لَنْ تُطِيلَا الْغِيَابَ.

.. هَرَعٌ إِلَى النَّافِذَةِ مُسْرِعًا هَذِهِ الْمَرَّةَ. طَارَتْ فَيْرُوزُ. هَمٌّ الصَّغِيرَانِ يَتَّبِعَانَهَا. يَقِفَانِ عَلَى حَافَةِ الدَّكَّةِ بِقَوَائِمِهِمَا الْحُمْرَاءِ، يُصَفِّقَانِ أَجْنَحَتَهُمَا مِنْ دُونِ أَنْ تَتَزَحَّزَحَ أَقْدَامُهُمَا قِيدَ إصْبَعٍ. يَجْفَلَانِ. .. أَنَا مَنَوَالٌ.. وَمَنَوَالٌ لَا يُخَفِّفُ أَحَدًا.. مَنَوَالٌ لَيْسَ أَزْرَقُ!

«طَلَقَتْ فِي صَدْرِ قُطْنَةٍ»

كَانَ ضُحَى الْعِيدِ. وَالْعِيدُ، كُلُّ عِيدٍ، بِهِجَةً قَبْلَ عِيدُنَا ذَاكَ. مَا صَارَ لِلْعِيدِ مَذَاقٌ خُلُوْ مُذْ صَارَ ذِكْرِي سَنَوِيَّةً لِحَدَثٍ أَكْرَهُهُ. أَكْرَهُنِي، يَوْمَ اجْتِمَاعٍ فِي بَهْوِ الْبَيْتِ أَفْرَادُ عَائِلَتِنَا الْكَبِيرَةِ الْمُتَشَطِّبَةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ. أَعْمَامِي وَزَوْجَاتُهُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ. لَمْ يَكُنْ فِي الْبَيْتِ إِلَّا عَمَّتِي وَفَايِقَةُ وَابْنَتُهَا وَأَنَا بِطَبِيعَةِ الْحَالِ. عَادَ وَالِدِي، مِنْ دُونِ إِخْوَتِي، مِنَ الْجَزِيرَةِ صَبَاحًا لِيَسْتَقْبِلَ إِخْوَتَهُ وَأَخْوَاتِهِ وَأَبْنَاؤَهُمْ. انْدَسَّ قَبْلَ مَجِيءِ الرُّؤَاةِ فِي حَوْشِ الْغَنَمِ لِنَصْفِ سَاعَةٍ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ مُتَعَرِّقًا يَسْأَلُ عَمَّتِي أَنْ تُجَهِّزَ لَهُ حَمَامًا سَاخِنًا.

تكدّس أبناء عمومتي من الأطفال في إحدى زوايا البهو، مقر فصين
 في ثياب العيد، يعدّون أوراقاً نقديةً، يتباهى واحدُهم بحصيلته من
 مالٍ حظي به من الأقارب والجيران. امتدّت جلسةُ الأهل ما يُقارب
 السّاعتين أمضيتهما صامتاً. حملت فايقة زُجاجة دهن العود في يد،
 ومبخراً يتصاعد منه دُخان البخور في يدٍ أخرى، تطوفُ مُنحنيةً على
 زوّارنا. التفت عمّي الأكبر إلى إخوته مُفليّناً ضحكةً مُجلجلةً أسفل
 شاربه الأبيض، يُقرّب بكفه دُخان البخور إلى وجهه وهو يقول. ما
 بعد العود قعوداً! تضاحك الجميع إزاء إعلان انتهاء الزيارة وقت حرق
 البخور. لملمت عمّاتي عباءتهنّ قبل أن يصيح بهن والدي ضاحكاً.
 اقعدوا! اقعدوا. أشار بيده صوب المسجد القريب. لم يؤذّن الظهر
 بعد! صاح بـ قُطنة المكسورة في المطبخ منذ الصباح. العصير يابنت!
 ظهرت قُطنة بثوب لا يُشبه العيد. مُطأطئة تحمّل كؤوس العصير
 تغصّ رموشها بالكحل سائلاً. مضت ثقيلة الخطى تطوف على الزّوار
 مُنحنية. دعاني والدي لأن أقترب منه. ربّت على المقعد إلى جواره.
 جلستُ مُنكمِشاً. أمسك بكفّي يهمس في أذني بما يُشبهه فحيحاً
 تُخالطه رائحة التّبغ. صح بالفتاة: «بالعبدة»!

لا اتّسع عيني ولا ارتعاشات جسدي أنجدتني من تلبية رغبة
 والدي المريضة. قرص زندي كأنما يهّم بانتزاع قطعة من لحمي. صح
 بها! أخذ يتهجّى الحروف هامساً في أذني: «يال عبدة».

نضخ جسدي عرقاً غزيراً وأنا أراقب قُطنة مُنحنية تطوف بكؤوس
 العصير لا تزال. لم أقو صبراً على احتمال الوجود في زندي. تحرّرت
 منه وقت صرخت متوجّعةً بابتة فايقة. يال «عبدة»!

كأنما أُصِبتُ بِصَمِّمٍ عَلَى نَحْوِ مُفَاجِئٍ. خَرَسَ هِطٌّ عَلَى بَهْوِ
الْبَيْتِ شَلَّ أَلْسِنَةَ الْحُضُورِ الَّذِي صَارَ وَاحِدُهُمْ يَنْظُرُ إِلَى الْآخِرِ
مُسْتَفْهِمًا. لَمْ أَجِرْ عَلَى الْقَوْلِ، وَالِدِي هُوَ الَّذِي فَعَلَ، أُقْسِمُ أَنَّهُ هُوَ،
لَكِنِ الْكَلِمَةُ خَرَجَتْ مِنْ فَمِي وَكُلُّ زَوَّارِ الْعِيدِ يَشْهَدُونَ. لَنْ أُنْسِيَ وَجْهَ
قُطْنَةِ وَقْتِ انْهَمَرَ الْكُحْلُ سَخِيًّا عَلَى وَجْتَيْهَا، تَنْظُرُ إِلَيَّ زَائِمَةً شَفْتَيْهَا
لِئَلَّا تُفْلِتَ عِبْرَةً بِكَاءٍ يَفْضُخُ انْكِسَارَهَا صُبْحًا. لَنْ أُنْسِيَ وَجْهَ عَمَّتِي
تَنْظُرُ إِلَيَّ صَامِتَةً تَتَفَهَّمُ وَلَا تَفْهَمُ. لَنْ أُنْسِيَ اعْتِرَافًا أَوَّلَ مَنْ وَالِدِي وَهُوَ
يَخْلَعُ عَلَيَّ رِضَاءَهُ هَامِسًا: رَجُلْ!

لَنْ أُنْسِيَ نَسْيَانِي لَمَّا حَدَثَ بَيْنَ صَرَخَتِي بِـ قُطْنَةِ وَاسْتِيقَاضِي مِنْ نَوْمٍ
لَا أَتَذَكَّرُ كَيْفَ بَدَأَ أَسْفَلَ السَّلَمِ. أَبْقِظُنِي جَفَافٌ رِيقِي. حَسِبْتُ مَا جَرَى
لَيْسَ إِلَّا خُلْمًا لَوْلَا رَائِحَةُ الْبُخُورِ فِي بَهْوِ الْبَيْتِ تَوَكَّدُ لِي. لَمْ يَكُنْ خُلْمًا!
منوال

.. يَعْقِدُ حَاجِبِيهِ يُضَيِّقُ عَيْنِيهِ كَأَنَّمَا يَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ وَرَاءَ الْبُخَارِ
الْمُتَبَعِثِ مِنَ الْمَاءِ الْمَغْلِيِّ. غَطَسَ كَفَّهُ الْيَمْنَى فِي الْقِدْرِ وَهُوَ يَصِيحُ
بِالصَّغِيرَيْنِ. زِينة.. رَحًا!!! أَلَا أَخْرَجَ كَفَّهُ مُلْتَهَبَةً ثُمَّ رَاحَ يَرْكُضُ كَالْمَجْنُونِ.
«صَمْتُ عَلَى صَمْتٍ»

رَكَضْتُ إِلَى حَوْشِ الْغَنَمِ وَرَائِحَةُ بَخُورِ الْبَهْوِ تُزَكِّمُ أَنْفِي. رَائِحَةُ
مُحِبَّةٍ كَانَتْ، مَقِيَّتُهُ صَارَتْ عَلَى نَحْوِ لَا أَطِيقُهُ. وَقَفْتُ لَاهِنًا وَسَطَ
الْحَوْشِ أَصْبَحَ. قُطْنَةُ.. قُطْنَةُ! ثِيَابُ فَايِقَةٍ مُعَلَّقَةٌ عَلَى حَبْلِ الْغَسِيلِ.
ثِيَابُ قُطْنَةِ لَا. بَحَثْتُ عَنْهَا فِي بَيْتِ الصَّفِيحِ وَالْخَشَبِ، الْحَمَامِ الصَّغِيرِ

وكلّ مكان. لا أثر إلا لِقِطْعَةٍ دَيْرٍمْ تُشبه التي أحتفظُ بها، عثرتُ عليها بين البرسيم اليابس إلى جوارِ مكانِها على دَكَّة الغسيل، غير تلك القِطْعَةِ النسيجية لا شيء! كأنما الفتاة لم تَمُرَّ مِن هُنَا ولم تَخُطْ ذكرياتها في هذا البيت قط! هَجَسْتُ بقولِ والدي. مردُّ «العبدَةِ» إلى عبدِ يَأوُبِها! أجبْتُني. كَذِب! صَفَعْتُني حَقِيقَةً أَن لا مُسَوِّغَ لبقاء قُطْنِي في بيتنا. أنا لا أفهم كيف يُتاجر والدي فيما يكره! نالَ بُعَيْتُهُ اليومَ مَرَّتَيْنِ؛ كَسَرَهَا في حوشِ الغنمِ صباحًا، وفي بهو البيتِ أمامَ الضيوفِ قُبيل الظهر. قُطْنَةُ العبدَةِ، ما الذي يُجْبِرُها على البقاء؟!!

ضممتُ ساقِي إلى صدري وأَسْنَدْتُ جِنبِي بين رُكْبَتِي مؤمِنًا برحيل ابنة فايقة. لا بأس، إيماني برحيلها لا يعني كُفْرِي بعودتها. رَحْتُ، كأنما أَصْلِي، أَرَدَّدُ. حَمَامُ الدَّارِ لا يغيب. حَمَامُ الدَّارِ لا يغيب. أحاولُ استفزاز صوتِ أَلِفَتِهِ ساعاتٍ ضعفي. ساعةٌ مضت. أكثرُ رُبَّمَا. شددتُ ذراعِي حَوْلَ ساقِي أَتَكَوَّرُ على ذاتي أكثر، أَرَدَّدُ تعويذاتِ حمام الدَّارِ وأفعاها. أُرْهِفُ سَمْعِي أَتَحَرَّى هائِفًا مألوفًا.

منوال

أَفَلَتَ صُراخًا، وهو يركُضُ كالمجنون.. قَرَبَ كَفَّهُ الملتهبِة إلى وجهه وقد تغَضَّنَ جِلْدُها وتورَّم واحمرَّ.. دَسَّ كَفَّهُ في كيسِ الثَّلجِ وأغْمَضَ عينيه.. جلسَ على رُكْبَتَيْهِ. مالَ برأسِهِ يَدْنِيهِ إلى سَبِيلِ الثَّلجِ على الأرض. أحاط فمه بكَفِّهِ وهو يهْمِس. رَحَّال.. زينة.. أنا.. أنا أسف.

«ضَجِيجُ الصَّمْتِ»

صمْتُ لا قِيلَ لي بِهِ. ما بالُ هاتِفِي نائمٌ على يَأْسِي لا ينطق بما

أُحِبُّ؟ ماذا يعني رحيل قُطنة؟ واحدةٌ من أهل الدَّار كانت وينبغي أن تعود. رحتُ أَعَدُّدُ على أصابعي حماماتٍ أعرُفُها. أمي، الحمامةُ الأم التي غابت مكلومةً بغيابِ حماماتها على غير موعد لقاء. الحمامات الأربع اللاتي لم يَعُدْنَ مُذَ رحيلهنَّ إلا عوداتٍ منقوصةٍ لا تُطفئ ظمأً اشتياق. ما عادَ الصَّوتُ حاضراً. ولم تُعدْ تعويذات حمام الدَّار وأفعالها تُجدي نفعاً. سقطَ شيءٌ في داخلي. رفعتُ جبيني عن رُكبتَي أُلْتَفْتُ حولي تنهشني الريبةُ والصَّمَت.

منوال

.. قصعةٌ خزفيةٌ وقعت من الخزانة وتهشمت. تجاهلها. تناول بندقية صيدٍ هوائية. مسحَ عنها الغبار بِكُمٍ منامته. طوى سَبَطانها. نفخَ فيها. أَلْقَمَهَا طَلْقَةً ثُمَّ هرعَ إلى غرفةِ نومه.. هذه الحمامة غير جذيرةٍ بالحياة!

«حمام الدَّار يغيب»

كنتُ مؤمناً بوجود ذلك الصَّوت، أردتُه أن يكون موجوداً وقت أوشِكُ أن أفقد أُملاً. صوتٌ هُنا في هذا الصَّدر، رَطَبٌ يُلين صلابة صمتِ اليقين في رأسي. غابَ إخوتي، غابت أمي، وبقيَ الهاتفُ على قيد موتٍ مؤجَّل، جاءَ أَجَلُهُ يومَ فقد قُطنة. ماتَ الصَّوتُ في داخلي. ذهبَ مثلما جاءَ هادئاً ساكِناً. ذلك الذي لم أتيقن وجوده، رغم أنه موجود مثل شيءٍ أكيد، كان وقتَ غيابِ إخوتي وأمي يَبْثُنِي إيماناً بعودة الغائب، وغابَ هو الآخر حاملاً معه وعوداً كاذبةً يومَ رحيل قُطنة. حمام الدَّار قد يغيب، وأفعى الدَّار قد تخون. ما كنتُ لأنتبه إلى

موت إيماني الذي لم يكن إلا رغبةً مُلحَّةً لمستحيلٍ لولا الصَّمت الذي احتلَّنِي على نحوٍ مُفاجئ. ما الذي كنت أتحزِّي سماعه؟ رحتُ أَمِينُ التفكير. لا شيء! حاولتُ أن أنسبَ بخيطٍ دقيقٍ سرعان ما انقطع. ذلك الهاتفُ القديم الذي كان يُردِّد...! لذتُ بصمتي أسألني. يُردِّدُ ماذا؟! كان الهاتفُ يمدُّني بكلماتٍ لا أتذكُّرها. سألتني أخيراً.

أيُّ هاتفٍ؟!

منوال

.. أزاح قَدَميه ببطءٍ إلى حافةِ الدَّكَّة. ألصقَ ساقيه ببعضهما. بقي ساعاتٍ على حاله تلك..

ثم..

حطَّت زينة الجديدة على سعةِ النخلةِ القريبة ثانيةً في حين لا أثر لـ رَحَّال الذي غيَّبته الزُّرقة.. انسحبَ بهدوءٍ إلى غُرْفَةٍ مكتبه قبل الغروب. أسندَ رزمة أوراق على سطحِ المكتب، خطَّ عنواناً لأوَّل فصل: صباحٌ أوَّل، ثمَّ غاب في كتابته إلى حين أذان الفجر. تنبَّه من غفلته. نظرَ غير مُصدِّقٍ إلى ساعة الحائط، ثمَّ إلى القلم بين أصابعه الملتهبة. وضعَ فوقَ المخطوط الناقص ورقةً بيضاء صقيلة، وراح يخطُّ في زاويتها: نصُّ لقيط.

غاب في المطبخ يُعدُّ قهوته، ثمَّ أقفلَ إلى مكتبه يكتبُ مُقدِّمةً لنصِّه الأُحجية:

«إلى هنا يكفي هذا الهُراء!»..



الصَّبَاحُ السَّادِسُ

177

«استيقظَ مدعورًا إثرَ صوتِ ارتطامٍ قريبٍ. فتحَ عينًا واحدةً ينظرُ ناحيةَ الصُّوتِ وقد احتلَّ الثُّورُ غرفته فجأةً. ألقى توأَميه في ثيابِ البحرِ وعَوَّاماتِ الأكتافِ، ينظرُانِ إليه وجَلَيْنِ عندَ النافِذةِ والسَّتارةِ بينَ أَقدامِهِما على الأرضِ. صاحَ بهما مُعْتَفًا. انتفضا. هو يقولُ هي. هي تقولُ هُوَ. جلسَ على حافةِ الشَّريرِ يدعكُ عينيه. دخلت منيرةٌ بِاسِمةً. لم يقصِّدا إسقاطَ السَّتارةِ. دفعهُما الحماسُ. أرادَا إيقاظك وحسبَ. نظَّرتَ إلى ساعةٍ معصمِها قبلَ أن تُردِفَ. وعدتُهُما البارحةِ بأخذِهِما إلى البحرِ، هل نسيتَ؟ تسارعَ وجيبُ قلبِهِ إزاءَ سماعِ الكلمةِ. البحرُ؟ قالَ مستفهِمًا وهو يُبحِلِقُ في ثيابِ الصَّغِيرَيْنِ والعَوَّاماتِ تُحيطُ أكتافَهُما. التفتَ لزوجتهِ. وعدتُهُما نزولًا عندَ الحاجِكِ ولكن. بترَ جُمْلتهِ وأشارَ إلى صَغِيرِيهِ بيدهِ أن يقتربا. نزَعَ العَوَّاماتِ من أكتافِهِما وأمرُهُما بتغييرِ ثيابِ السَّباحةِ. أن نذهبَ إلى البحرِ لا يعني أنكما سوفَ تنزلانِ إلى الماءِ! قالَ بجِدَّةٍ. طأطأ الصَّغِيرانِ اللذانِ أمضيا ليلتَهُما البارحةِ نومًا بثيابِ البحرِ والعَوَّاماتِ. هزَّت منيرةٌ رأسها آسفةً من دونِ أن تُعلِّقَ بكلمةٍ.

على السَّاحِلِ المحاذي للمرسى، جلسَ ومنيرةٌ ينظرُانِ إلى التوأمينِ الجالسينِ يُشَيِّدانِ بيوتًا من الرَّمْلِ وصخورِ البحرِ عندَ التقاءِ الماءِ باليابسةِ. بقيَ مُتملِّمًا في جلسَتِهِ مُتأهِّبًا لطارئٍ يخشاه. تُرَبَّت منيرةٌ على رُكبَتِهِ. لا تُبَالِغ. يبدو أنه لا يسمعُ قولَها. لا يسمعُ ضحكك

الصَّغِيرِينَ. لَا يُنْصِتُ إِلَى شَيْءٍ إِلَّا هَدِيرَ الْمَوْجِ الْهَادِيَّ يَتَعاقَبُ فِي
إِقْبَاعِ رَنْبٍ. بَدَأَ فِي صِرَاعٍ بَيْنَ أَنْ يُرَاقِبَ تَوَاقِيهِ أَوْ أَنْ يَصْرِفَ نَظْرَهُ
عَنْ زُرْقَةٍ تَوَاجِهُهُ بِصَدْرِهَا، تِلْكَ الزُّرْقَةُ الَّتِي تَجِيءُ بِإِخْوَتِهِ يَوْمَ غَدٍ،
يَأْذُونُ طَقْسًا قَدِيمًا.

ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ الطِّينِي أَمَامَهُ، مَرَصَّعٌ بِالْقَوَاقِعِ الَّتِي ثَبَتَهَا الصَّغِيرَانِ
عَلَى وَاجِهَاتِهِ. انْسَحَبَتْ مِيَاهُ الْبَحْرِ بِسُرْعَةٍ ثَرِيْبَةٍ، خَلَّتْ وَرَاءَهَا أَرْضًا
سَبِيخَةً. التَّفَنَّا يَتَّبِعَان وَجْهَةَ الْمَاءِ. ظَهَرَتْ سَفِينَةٌ عِمْلَاقَةٌ فِي الْأَفْقِ،
حَالَتْ دُونَ إِدْرَاكِ مِيَاهِ الْمَدِّ لِلْسَّاحِلِ. مَوْجَةٌ عِمْلَاقَةٌ ظَهَرَتْ مِنْ وَرَاءِ
السَّفِينَةِ. تَقْتَرِبُ بِسُرْعَةٍ، تَنْقُضُ عَلَى رِمَالِ السَّاحِلِ تَنْثُرُ زَبْدًا يُخَالِطُ
طَبْنًا عَلَى الزَّوْجِينَ. هَرَعَتْ مَنِيرَةٌ تَخَوْضُ فِي الْبَحْرِ الْمُضْطَرِبِ إِلَى
مَا فَوْقَ صَدْرِهَا. تَشْنَجُ جَسَدَهُ. تَعَالَتْ صَيْحَاتُ الصَّغِيرِينَ. يُبْهَ! يُبْهَ!
أَصْفَرَ وَجْهَهُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى غِيَابِهِمَا الْوَشِيكِ. أَرَادَ أَنْ يَمْضِيَ وَرَاءَهُمَا
فِي التَّيِّهِ الْأَزْرَقِ لَعَلَّهُ يُعْبِدُهُمَا إِلَى حُضْنِهِ. نَهَضَ عَنِ الْأَرْضِ. وَقَفَ
عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ يَنْظُرُ بَعِيدًا. ابْتَلَعَتْهُمَا الزُّرْقَةُ. لَمْ يَعُْدْ يَرَاهُمَا. أَخَذَ
يُلَوِّحُ بِيَدَيْهِ. يَصِيحُ بِهِمَا: رَحَّالٌ.. زِينَةُ! ثَمَّ أَطْبَقَ أَسْنَانَهُ عَلَى طَرَفِ ثَوْبِهِ
وَرَاحَ يَرْكُضُ كَالْمَجْنُونِ.

يَنْهَضُ مَنْوَالٌ غَارِقًا فِي عِرْقِهِ إِثْرَ اكْتِمَالِ كَابُوسِهِ. لَاهِيًا يَعْتَدِلُ
جَالِسًا عَلَى سَرِيرِهِ فَاتِحًا عَيْنَيْهِ عَلَى وَسْعِهِمَا. أَدَارَ وَجْهَهُ شَطْرَ نَافِذَتِهِ.
زِينَةُ الْجَدِيدَةِ مَا زَالَتْ رَابِضَةً هُنَاكَ. أَسْرَعَ خُطَاةً إِلَى خَزَانَةِ الْمَمَرِ.
فَتَحَهَا وَمَدَّ كَفًّا مُرْتَعِشَةً بَيْنَ أَشْيَائِهِ الْقَدِيمَةِ. أَمْسَكَ بِجَرِيدَةٍ مُصْفَرَّةٍ
أَوْرَاقَهَا لَمْ يَفْتَحْهَا إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً صَبَاحَ أَمْسٍ مَوْغِلٍ فِي الْبُعْدِ. بِحُلُقٍ
فِي خَبَرٍ احْتَلَّ صَدْرَ الصَّفْحَةِ الْأُولَى.

في ليلة البحث الثانية

الإدارة العامة لخفر السواحل: العثور على الطفلة المفقودة

كتب المحرّر الأمني

بعد مرور ما يقارب ست وثلاثين ساعة على حادثة اختفاء توأمي ساحل المرسى وبعد العثور على جثة الطفل الغريق (ر.م) عثر رجال خفر السواحل ليلة أمس على الطفلة (ز.م) في حالة صحية حرجية وهي متشبثة بحبل إحدى عوامات السلامة الشرقية على بعد 800 ياردة جنوب شرقي ساحل المرسى، وقد أكد الأطباء أن حالة

الطفلة مستقرة في وحدة العناية الفائقة في مستشفى العاصمة، فيما أكد فريق أطباء مختص صعوبة الحالة إثر تلف خلايا المخ بسبب انقطاع الأكسجين. وذكر مدير الإدارة العامة لخفر السواحل العميد بحري عبدالعزيز التميمي أن وحدات البحث والإنقاذ والتي تتكون من 7 زوارق ومروحيتي مراقبة لم تعثر في البدء.. التتمة (ص) 3.

أطبق منوال الجريدة. استدارَ يمشي ببطء نحو النافذة في غرفته. وقفَ على دَكَّتْهَا يرنو إلى تلاقي البحرِ بالسَّماء في حين استقرَّت الحمامةُ الجديدةُ زينة على طرفِ الدُّكَّةِ من دون حراك. أحكمَ قبضتهُ على جريدتهِ القديمة. أغمضَ عينيه ثم..

بقي ساعاتٍ على حاله تلك.. ثم..

أخذ يترنّم وهو يستدعي صوتَ أمّه.

يا نظير عيوني، ودَّعتك الله، يا نظير عيوني

نحت أنا لو أبرأ، نوح الحمامة، نحت أنا لو أبرأ

فَتَحَ عَيْنَيْهِ الَّتِي رَأَتْ كُلَّ شَيْءٍ. نَفَخَ صَدْرَهُ. بَاعَدَ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ.
ثَنَى سَاقَيْهِ يَهْمُ بِالْقَفْزِ.

غُرُووُوعٌ.

ثُمَّ..

سَمِعَ طَرَقًا عَلَى بَابِ شُقَّتَيْهِ.

لَنْ تَتِمَّ

الدُّرُجُ السُّفْلِي

«كُلُّ مَنْ عَاشَ فِي الدَّارِ يَصِيرُ مِنْ أَهْلِهَا؛ حِمَامُ الدَّارِ لَا يَغِيبُ
وَأَفْعَى الدَّارِ لَا تَخُونُ، هَذَا مَا قَالَتْهُ لِي بِصِيرَةٍ قَبْلَ سَتَيْنِ مِنْ يَوْمِنَا
ذَلِكَ، جَدَّةُ وَالِدِي، أَوْ رُبَّمَا جَدَّةُ جَدَّتِهِ، لَا أَدْرِي فَهِيَ قَدِيمَةٌ جَدًّا،
أَزَلِيَّةٌ، سَاكِنَةٌ فِي زَاوِيَةِ بَهْوِ الْبَيْتِ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ، مَلْتَحِفَةٌ سَوَادَهَا
أَسْفَلَ السُّلَمِ. لِمَاذَا أَسْفَلَ السُّلَمِ؟ لَمْ أَسْأَلْ نَفْسِي يَوْمًا عَنْ
مَوَاضِعِ أَشْيَاءٍ اعْتَدْتُهَا مُنْذُ مَوْلَدِي، فِي بَيْتٍ عَرَبِيٍّ تَطُلُّ حُجُرَاتُهُ
الضِّيْقَةَ عَلَى بَهْوٍ دَاخِلِيٍّ غَيْرِ مَسْقُوفٍ، بِبَهْوِ بِصِيرَةٍ الَّتِي لَمْ أَرَهَا
تَفْتَحُ عَيْنَيْهَا يَوْمًا، كَأَنَّمَا خِيطٌ جَفَنَاهَا بِرَمُوشِهَا مِنْذُ الْأَزَلِ».



01-01-2018

صدر له أيضاً عن الدار



ISBN: 978-614-03-2377-9



9 786140 123779



جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات، كهم
www.nwf.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com